صفات الإنسان في القرآن

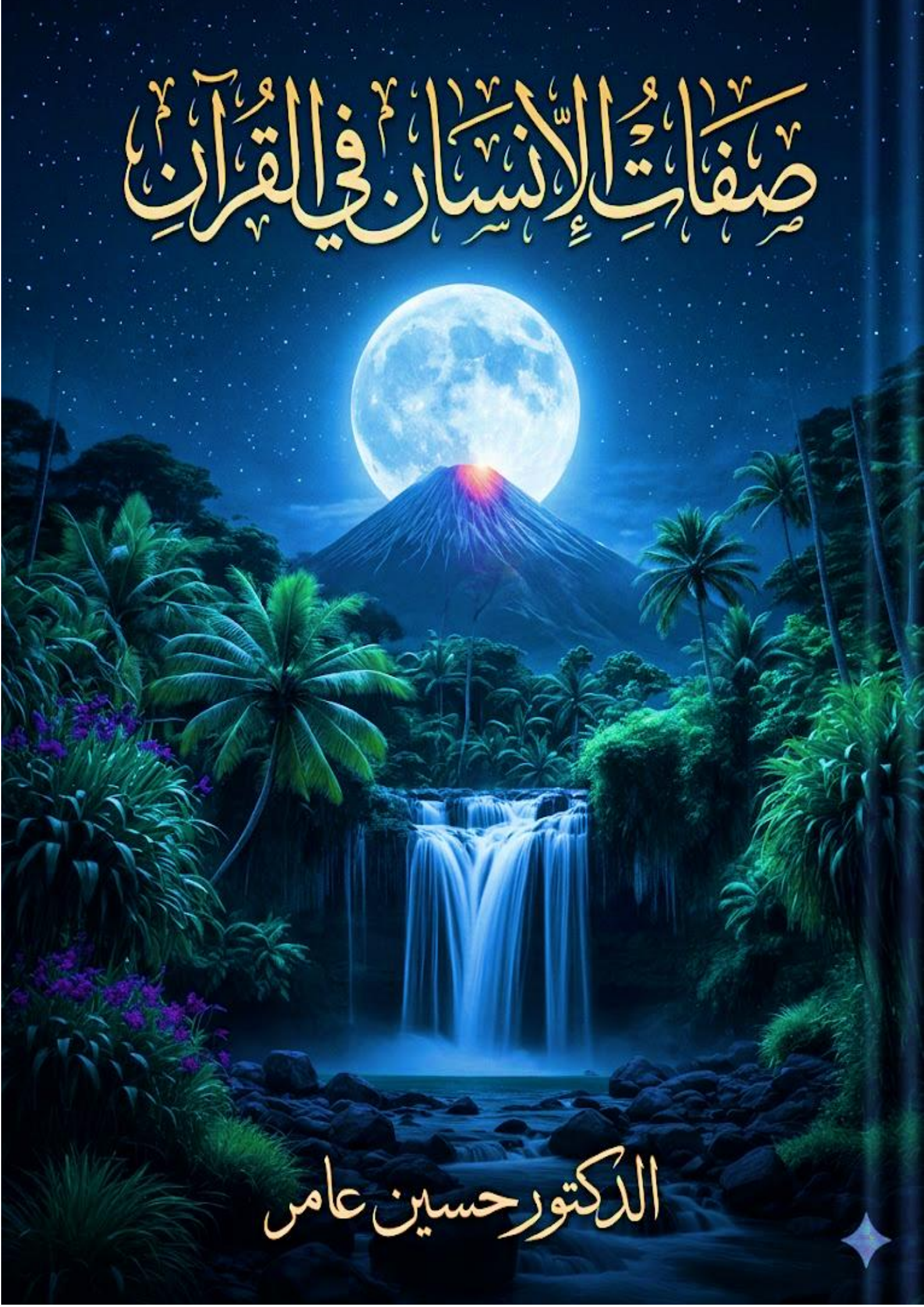

الدكتور حسين عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلَّمه البيان، وكرَّمه بالعقل، وشرَّفه بالتكليف، وهداه النجدين، واستخلفه في الأرض ليبتليه فيما آتاه، وأقام له من آيات الوحي والكون ما يدلُّه على خالقه، ويُبصِّره بحقيقة وجوده، ويهديه إلى غايته ومصيره.

والصلاة والسلام على سيد ولد آدم محمد ﷺ، الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق، فبيَّن للإنسان طريق سعادته ونجاته، وهداه إلى ما تزكو به نفسه، ويستقيم به أمره في دنياه وأخراه؛ وعلى آله وصحبه، ومن سار على هديه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن من أعظم الأسئلة التي شغلت الإنسان منذ فجر التاريخ: من أنا؟ ومن أين جئت؟ ولماذا خُلقت؟ وما حقيقة هذه النفس التي بين جنبيَّ؟ وما سرُّ ما اجتمع في الإنسان من قوة وضعف، وعلم وجهل، وشكر وجحود، وصبر وجزع؟ وما وظيفتي في هذه الحياة؟ وإلى أين ينتهي بي هذا الطريق؟

وتلك أسئلة لا يستطيع الإنسان أن يستقل بالإجابة الكاملة عنها بعيدًا عن هداية خالقه؛ لأن علم الإنسان بنفسه، مهما اتسع، يظل علمًا محدودًا، أما الله سبحانه فهو خالق الإنسان، والعليم بحقيقته، وأحواله، وخصائصه، وما يصلحه ويفسده، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

ومن هنا كانت العودة إلى القرآن الكريم ضرورةً لفهم الإنسان؛ فالقرآن لا يحدِّث الإنسان عن ربه فحسب، وإنما يحدِّثه كذلك عن نفسه: عن أصل خلقه، ومراحل تكوينه، وفطرته، وخصائصه، ومواطن قوته وضعفه، وشهواته ونوازعه، وتكريمه وابتلائه، وأمانته ومسؤوليته، واستقامته وانحرافه، كما يبيِّن له سبيل

إصلاح نفسه، والغاية التي خُلق من أجلها، والمصير الذي ينتظره بعد انقضاء حياته.

ومن يتأمل القرآن الكريم يجد فيه حديثًا واسعًا متنوعًا عن الإنسان؛ فتارةً يذكِّره الله بأصل خلقه، وتارةً يقرِّر تكريمه وحسن تقويمه، وتارةً يكشف له مواطن الضعف الكامنة في طبيعته؛ فيخبر أنه خُلق ضعيفًا، وأنه مطبوع على العجلة، وأنه قد يستسلم للهلع والجزع والمنع، أو يقع في الظلم والجهل، أو يجحد نعمة ربه، أو يشتد حبه للمال.

وليس المقصود من بيان هذه الصفات ذم الإنسان أو تحقيره على الإطلاق، وإنما المقصود تعريفه بحقيقة نفسه، وتنبيهه إلى مواطن ضعفه، حتى يعرف موضع الداء وطريق الدواء، ويدرك حاجته الدائمة إلى هداية الله وتوفيقه وتزكية وحيه.

أهمية موضوع الكتاب

تنبع أهمية الحديث عن **"الإنسان في القرآن"** من أن معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وفقره وضعفه تعينه على معرفة عظمة خالقه وكماله، وتبصِّره بوظيفته في الحياة، وتكشف له حقيقة علاقته بربه وبالكون وبالناس من حوله.

فالإنسان إذا جهل نفسه أخطأ في تقدير قدراته، وأساء التعامل مع غرائزه ونوازعه، وربما توهَّم الاستغناء بقوته، أو اغترَّ بعلمه، أو استسلم لضعفه، أو جعل شهوته غاية وجوده، أو ظن أن الحياة الدنيا هي نهاية المطاف.

أما التصور القرآني فيردُّ الإنسان إلى موضعه الصحيح؛ فهو مخلوق مكرَّم بما منحه الله من عقل وإرادة وقدرة، وهو في الوقت نفسه عبد ضعيف مفتقر إلى خالقه، لا يستغني عن هدايته وعونه، وهو صاحب اختيار ومسؤولية، ومبتلى فيما أعطاه الله، يعيش في الدنيا ويعمل على إصلاحها وعمارتها وفق شرع الله، غير أنه

لم يُخلق للدنيا وحدها، وإنما خُلق لعبادة الله، وحُمِّل الأمانة، ثم يعود إلى ربه ليحاسبه على ما قدَّم.

وتزداد الحاجة إلى هذا الموضوع في زماننا؛ إذ تعددت التصورات التي تحاول تعريف الإنسان بعيدًا عن الوحي: فتصورٌ يختزله في جسد تحرّكه الغرائز، وآخر يراه كائنًا اقتصاديًّا تحكمه المنفعة، وثالث يجعله سيد نفسه، لا مرجعية فوق إرادته، ولا غاية وراء متعته ومصلحته.

أما القرآن الكريم فيقدِّم رؤيةً شاملةً متوازنةً للإنسان؛ تجمع بين الجسد والروح، والعقل والفطرة، والاختيار والتكليف، والحرية المنضبطة والمسؤولية، والدنيا والآخرة؛ فلا تطغى فيها حاجة الجسد على غذاء الروح، ولا يُلغى العقل باسم الإيمان، ولا ينفصل الاختيار عن المحاسبة، ولا تصبح عمارة الدنيا حجابًا عن الاستعداد للآخرة.

وقد حرصت في هذا الكتاب على إبراز الصلة الوثيقة بين تكريم الإنسان ووظيفته؛ فالله تعالى لم يكرِّمه عبثًا، وإنما منحه من الأدوات والقدرات والاستعدادات ما يؤهله لحمل الأمانة، والقيام بالعبودية، وإصلاح الأرض وعمارتها وفق منهج الله تعالى.

والتفسير الموضوعي للقرآن يعد من أنفع المناهج في الكشف عن هداياته؛ إذ لا يقف الباحث فيه عند تفسير آية منفردة بمعزل عن نظائرها، وإنما يجمع الآيات المتعلقة بقضية واحدة، ويردُّ بعضها إلى بعض، وينظر إليها في سياقاتها المختلفة؛ حتى تتكامل الجزئيات وتتضح الصورة القرآنية الكلية.

وموضوع الإنسان من أخصب موضوعات التفسير الموضوعي؛ لأن الآيات المتعلقة به موزعة في سور القرآن الكريم: فمنها ما يتحدث عن أصل خلقه

وتكوينه، ومنها ما يبيّن فطرته وتكريمه، ومنها ما يكشف مواطن ضعفه وصفاته ونوازعه، ومنها ما يوضح ابتلاءه ومسؤوليته وأمانته، ثم تأتي آيات أخرى ترسم له سبيل التزكية والإصلاح والنجاة.

ومن هنا تظهر قيمة جمع هذه الآيات ودراستها في إطار موضوعي متكامل؛ فالآيات التي تصف الإنسان بالضعف تكملها الآيات التي تقرر تكريمه، والآيات التي تصفه بالهلع والجزع تكملها الآيات التي تستثني أهل الصلاة والإيمان والطاعة، والآيات التي تكشف ما قد يقع فيه من ظلم وجهل وجحود تكملها الآيات التي تبيّن أثر الإيمان والعمل الصالح في تزكية النفس وتقويم السلوك.

وبهذا المنهج لا نقع في خطأ بناء تصور كامل عن الإنسان استنادًا إلى آية واحدة أو صفة منفردة، وإنما ننظر إليه من خلال مجموع البيان القرآني، فنرى ضعفه إلى جانب قوته، وتكريمه إلى جانب تكليفه، واختياره إلى جانب مسؤوليته، واستعداده للانحراف إلى جانب قدرته، بتوفيق الله، على التوبة والتزكية والارتقاء.

منهج الكتاب

جمعت في هذا الكتاب بين التفسير التحليلي للآيات المحورية والتفسير الموضوعي الذي يربط الآيات بنظائرها، وسلكت في ذلك منهجًا يقوم على المعالم الآتية:

1. **اختيار الآيات المحورية المتعلقة بالإنسان :**وذلك بجعل كل آية، أو مجموعة مترابطة من الآيات، مدخلًا لدراسة جانب من جوانب حقيقة الإنسان وخصائصه ووظيفته ومصيره.
2. **بيان المعنى الإجمالي للآيات :**من خلال شرح ألفاظها، والكشف عن دلالاتها، وبيان ما يحتاج منها إلى إيضاح، مع مراعاة السياق الذي وردت فيه.
3. **عرض أقوال أهل التفسير :**بالرجوع إلى كلام المفسرين قديمًا وحديثًا،

والاستفادة مما فتح الله به عليهم من فهم المعاني واستنباط الهدايات، مع الترجيح بين الأقوال عند الحاجة، وفق دلالة السياق، وتفسير القرآن بالقرآن، والسنة الصحيحة، ولسان العرب، وأقوال السلف، وقواعد الترجيح المعتبرة.

4. **تفسير القرآن بالقرآن :** وذلك بربط الآية بنظائرها في سور القرآن المختلفة؛ حتى تتكامل الصورة، ولا يُفهم النص القرآني بمعزل عن بقية النصوص المتصلة بموضوعه.

5. **الاستفادة من السنة النبوية :** لما للسنة من أثر عظيم في بيان معاني القرآن وتفصيل مجمله وتجسيد هداياته، مع ربط دلالات الآيات بهدي النبي ﷺ وسيرته العملية.

6. **الانتقال من التفسير إلى التدبر والتربية :** فلم يكن المقصود الوقوف عند حدود الدلالة اللغوية والتفسيرية، وإنما تجاوز ذلك إلى النظر في أثر الآية في النفس والسلوك: ماذا تصنع هذه الآية في الإنسان؟ وكيف تعالج ضعفه وعجلته وجزعه وشحَّه وغفلته؟ وكيف تتحول المعرفة القرآنية إلى إيمان وعبادة وأخلاق وعمل؟

7. **ربط الهدايات القرآنية بواقع الإنسان المعاصر :** وذلك بتنزيل المعاني القرآنية على ما يواجهه الإنسان في شؤون أسرته وعمله وماله وعلاقاته وابتلاءاته؛ حتى يشعر القارئ أن القرآن يخاطبه، ويعالج واقعه، ويهديه في تفاصيل حياته، لا أنه يتحدث عن إنسان بعيد عاش في زمن مضى.

سمات هذا المنهج ومميزاته

من أبرز ما أرجو أن يتميز به هذا الكتاب الجمع بين **التفسير والتدبر، والعلم والتربية، والتأصيل والتطبيق؛** حتى لا يكون الحديث عن الإنسان دراسةً نظريةً

مجردة، وإنما رحلةً يتعرف القارئ فيها على نفسه في مرآة القرآن، ويكتشف من خلالها مواطن ضعفه وقوته، وأسباب انحرافه، وسبل تزكيته وإصلاحه.

كما يقوم هذا المنهج على النظرة المتكاملة إلى الإنسان، فلا يختزله في صفة واحدة، ولا ينظر إليه نظرة مبتورة؛ فالإنسان الذي وصفه القرآن بالضعف هو نفسه الذي كرَّمه الله، وخلقه في أحسن تقويم، ومنحه العقل والإرادة والقدرة، وكرَّم أباه آدم عليه السلام فأمر الملائكة بالسجود له، وحمَّله الأمانة، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يبصِّرنا بهدايات كتابه، ويعرِّفنا بحقيقة أنفسنا، ويعيننا على تزكيتها وإصلاحها، وأن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا، وهاديًا لنا إلى صراطه المستقيم.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

د. حسين عامر

مدينة لافال- كندا

غرة شهر ربيع الأول 1448هـ

الإنسان في القرآن

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

[البقرة: 30].

1- ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

[البقرة: 30].

من أعظم الأسئلة التي ينبغي للإنسان ألا يعيش غافلًا عنها :
من أين جئت؟ ولماذا خُلقت؟
وما الذي ينتظرني بعد هذه الحياة؟ أين المصير؟

ولم يترك القرآن الإنسان حائرًا أمام هذه الأسئلة، بل قص عليه قصته من أولها، وكشف له حقيقة وجوده، وأخبره بمهمته، وحذره من عدوه، ثم أخبره إلى أين ينتهي الطريق.

لقد بدأت قصة الإنسان قبل أن تطأ قدماه هذه الأرض، حين قال ربنا سبحانه للملائكة:
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].
فوجود الإنسان في الأرض لم يكن عبثًا، ولم يكن ظهوره في هذا الكون حادثًا بلا حكمة، بل خلقه الله بإرادته وعلمه وحكمته، وهيأ له هذه الأرض ليعيش فيها زمنًا معلومًا، ويُبتلى فيها بما أعطاه الله من إرادة وقدرة واختيار، ثم يعود إلى خالقه.

مراحل خلق الإنسان الأول: آدم عليه السلام:

جاءت الألفاظ القرآنية عن بداية خلق الإنسان: التراب، والطين، والحمأ المسنون، والصلصال لتصف مراحل متتابعة في خلق الإنسان:

1- التراب

الأصل الأول هو **التراب**، كما **قال تعالى:** ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]** فالتراب هو المادة الأصلية التي بدأ منها خلق آدم عليه السلام.

2- الطين

ثم اختلط التراب بالماء فتحول إلى طين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ

خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: 7] وقوله: **﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: 11]** والطين اللازب هو الطين المتماسك الذي التصق بعضه ببعض.

3- الحمأ المسنون

ثم بقي هذا الطين مدة، فتغير وصار **حمأً مسنونًا**، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾** [الحجر: 26] والحمأ هو الطين الذي مضى عليه زمن فاختمر فتغيرت رائحته.

وأما معنى **المسنون** فقد جاءت فيه أقوال للمفسرين، منها: المتغير، ومنها المصوَّر، ومنها المصبوب على هيئة معينة.

4- الصلصال

ثم جف الحمأ المسنون وصار **صلصالًا**، والصلصال هو **الطين اليابس** .

وسمي صلصالًا لما يكون له من صوت أو صلصلة إذا قُرع، كما **قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: 14]** وتشبيهه بالفخار لا يلزم منه أنه أُدخل النار وصار فخارًا حقيقة؛ وإنما صار يابسًا له صلصلة **كالفخار**.

5- التسوية ثم نفخ الروح

ثم بعد تمام هذه المراحل سوّى الله آدم على الهيئة التي أرادها، **قال سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29]** إذن بدأ خلق الإنسان من تراب؛ أضيف إليه الماء فصار طينًا؛ مكث فتغير فصار حمأً مسنونًا؛ جف فصار صلصالًا؛ سوَّاه الله؛ نفخ فيه الروح.

إنها أوصاف متعددة لمادة الخلق الأولى، يذكرها القرآن ليوقظ في الإنسان حقيقتين عظيمتين:

1- أن أصله من هذه الأرض، فلا ينبغي له أن يتكبر.

2- وأن الذي رفع قدره ليس مادة جسده، وإنما ما أكرمه الله به من الروح، والعقل، والعلم، والهداية.

هل الإنسان خليفة الله في الأرض؟

هذا يرجع لتفسير قوله تعالى للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] وللعلماء قولان في معناها:

التفسير الأول: أن الإنسان هو خليفة الله تعالى في الأرض، استخلفه الله -عز وجل- للإصلاح فيها وعمارتها، وإقامة شريعة الله تعالى ودينه، وهذا المعنى المقصود به تشريف الإنسان بهذا الاستخلاف، وهذا ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع منها قول الحق جل وعلا لداوود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص: 26]، وكان داوود عليه السلام ملكا نبيا مستخلفا من الله -عز وجل- في الأرض ليحكم بين الناس بالحق.

وفي الآية الأخرى يقول الحق جل وعلا على لسان موسى لما شكا بنو إسرائيل إلى موسى اشتداد أذى فرعون، **قال:** ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129] **وقال الله -عز وجل-** ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 62] أيضا ورد قول الحق تعالى في سورة الحديد: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7] والمقصود هنا مما ملككم الله تعالى من عطائه ونعمته، فالإنسان مستخلف من الله على المال، وأمره الله أن يؤدي حق الله في المال بالزكاة، وإطعام الفقير، والمسكين، وإعطاء المحتاج إلى آخر ذلك.

فمعنى خليفة أي أنه موكل من الله -عز وجل- بهذه المهمة، وهذه الوكالة ليست كوكالة الملائكة فإن الملائكة إذا كلفوا بأمر فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، أما بنو آدم ففيهم الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر، فهناك من يحرم نفسه من شرف الاستخلاف في الأرض فيصير من أتباع الشيطان، وهناك من يشرف بهذا الشرف العظيم فيقيم شعائر الله، ويقيم أمر الله، ويصلح في الأرض، ويعمرها، ويصلح فهذا يؤدي حق الاستخلاف في الأرض.

التفسير الثاني: (إني جاعل في الأرض خليفة) يعني خلقا يخلفون الجن في الأرض، أو خلقا يخلف بعضهم بعضا، كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]، خلائف أي: جيل يعقبه جيل، يخلف بعضهم بعضا، وفي الآية ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ**﴾ [مريم: 59]، والناس في الدارجة المصرية يسمون الأولاد الخلفة، فالخلف المقصود به أن هناك خلقا يخلفه خلق، وجيلا يخلفه جيل، وهكذا، أي أن الله تعالى يجعل نسلا وتكاثرا وعمارة في الأرض بهؤلاء الخلق.

هذا الأمر أراده الله تعالى في الحياة لحكم كثيرة منها، الابتلاء وعمارة الأرض، وأن يظهر الصالح من الفاسد، قال تعالى: ﴿**الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ [الملك: 2] إلى غير ذلك من الحكم.

والراجح: أن اللغة العربية تحتمل المعنيين أن بني آدم فعلا خلفوا الجن في الأرض بعد أن أفسدوا فيها، وأنهم أجيال تتعاقب؛ خلف من بعد خلف، وجيل من بعده جيل، وكذلك خلق الله الإنسان ليكون موكلا ومكلفا بتنفيذ أمر الله تعالى وإقامة شرعه وإصلاح الأرض.

الغاية من خلق الإنسان

بين الله تعالى لنا الغاية من خلقنا وأنا خلقنا لثلاث غايات:

الغاية الأولى: عبادة الله وحده لا شريك له:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] أي أن الغاية العظمى من وجودنا في الدنيا هي **عبادة الله وحده**، وعبادة الله عز وجل تكون بإفراده سبحانه بالتوحيد، وإفراده سبحانه بالتشريع؛ فهو الآمر الناهي نعبده وحده لا شريك له؛ ونطيعه ولا نعصي أمره جل جلاله.

وهذه الغاية هي الأساس التي لا يصح عمل إلا بها، ثم إنها تظهر عبر الابتلاء لأن به يظهر الصادق من الكاذب، وتظهر من خلال عمارة الأرض والإصلاح فيها.

الغاية الثانية :حكمة الابتلاء:

الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقه سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولم يتركهم هملا لا

يثيبهم ولا يعاقبهم، بل جعل الدنيا **دار اختبار وامتحان**، كما قال: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ **[الملك: 2]** فإن الله خلق عباده، وأسكنهم الأرض لأجل مسمى قدره سبحانه ، فينقلون منها بالموت، ثم يبعثهم من قبورهم فيجازيهم على أعمالهم، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

الغاية الثالثة: إعمار الأرض:

قال تعالى: ﴿**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ **[هود: 61]** فالإسلام دين يدعو للعمل والحركة والإصلاح وعمارة الأرض فلا رهبانية ولا انعزال وانطواء بعيدا عن الناس، إنما يسعى الإنسان لإعمار الأرض، واستثمار خيراتها النافعة في تحقيق مراد الله تعالى، وحفظ نظام التعايش فيها.

وفي الحديث عن **أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها)**
والمقصود من الحديث أن المسلم مكلف بالعمل فإذا يئس من ثمرة العمل أن يحصلها؛ فلا يترك العمل، عسى أن تنفع ثمرته غيره.

هل سكن آدم جنة الخلد بعد خلقه؟

وبمناسبة الحديث عن إعمار الأرض يلح علينا سؤال وهو أي جنة سكنها آدم بعد خلقه؟[1]

---

[1] هذه المسألة خلافية بين العلماء: فمنهم من قال: هي جنة الخلد التي في السماء، وأُهبط منها آدم عليه السلام. ومنهم من قال: هي جنة في الأرض، ومنهم من توقف في هذه المسألة، فلم يرجح أحد القولين على الآخر، وقد ذكر الخلاف في هذه المسألة الحافظ ابن كثير رحمه الله، وأطال النفس في ذلك؛ ذاكراً أقوال العلماء، ومما قاله رحمه الله: "الجمهور على أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث. وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد؛ لأنه كلّف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة، ولأنه نام فيها، وأخرج منها، ودخل عليه إبليس فيها، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى. وهذا القول محكي عن أبيّ بن كعب، وعبد الله بن عباس، ووهب بن منبه، وسفيان بن عيينة. والإمام ابن القيم رحمه الله يعد من أكثر من بحث هذه المسألة وأطال فيها؛ فقد قام رحمه الله باستقصاء أدلة كل قوم بالتفصيل، ولم يرجح رحمه الله قولاً على قول، بل توقّف في المسألة لتعارض الأدلة، ولقوة ووجاهة كلّ قول.
انظر: مفتاح دار السعادة (116- 44) وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح(52:77)

القول المشهور عند جمهور المفسرين: أن آدم كان في جنة الخلد، وأن إبليس وسوس لآدم في الجنة.

والقول الآخر أنها كانت جنة على الأرض وليست هي جنة الخلد، وهذا هو القول الذي أرجحه للأدلة التالية:

الدليل الأول: هناك تداخل في اللفظ ما بين جنة الخلد وكلمة جنة من الناحية اللغوية، العرب تطلق على البستان الممتلئ بالأشجار والثمار جنة، وهذا إطلاق وارد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا**﴾ [الكهف: 32] والله تعالى أخبر عن إنزال المطر من السماء فقال : ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا**﴾ [النبأ: 14-16] ، وقصة أصحاب الجنة: ﴿**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ**﴾ [القلم: 17]، إذن كلمة الجنة تطلق ويراد بها المعنى اللغوي وليس جنة الخلد فالجنة في لغة العرب هي المكان الذي فيه الأشجار الكثيرة والثمار فيسمى جنة لأنه لكثرة الأشجار من يدخلها يجنّ يعني يستتر ويختفي، والفعل جنّ يعني اختفى واستتر ومنه **(فلما جن عليه الليل)** يعني أقبل بظلامه فستر كل شيء، ومنه الجن لأننا لا نراهم، ومنه الجنين لأنه مستور في بطن أمه، ومنه المجنون لأنه استتر عقله فلا يدرك.
فالجنة مكان في الأرض هيأه الله تعالى لآدم ليسكنه هو وزوجه، وكان فيه من الطيبات ومن الظلال لكنه لما عصى أمر الله أخرج منها حتى يكون مسؤولا عن نفسه مكلفا بأن يجمع طعامه ويهيئ شرابه وحياته إلى غير ذلك.

الدليل الثاني: أن الله تعالى قال: (إني جاعل في الأرض خليفة) في الأرض وليس في الجنة، لم يخلقنا الله لنسكن الجنة ابتداءً، لكن لا شك أن الجنة هي الدار التي أعدها الله جزاء لعباده المتقين؛ أما في بداية الخلق فإن الله بين أنه خلق آدم ليسكن هو وذريته في الأرض، فكيف يُخبِر الله ملائكته، قبل خلق آدم، بأنه جاعله في الأرض خليفة، ثم يسكنه الجنة؟ ثم يخرجه الله منها عقوبة على أكله من الشجرة التي نهي عنها؟

إذن ليس للابتلاء هنا معنى وكأن العقوبة مجهزة قبل أن يقوم بالذنب، وحاشاه جل

وعلا أن يفعل ذلك.[2]

الدليل الثالث: أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم تكريما له، ومن ضمن المأمورين بالسجود لآدم إبليس، والسياق لم يذكر هذا صراحة لكننا نفهمه من خلال آيات القرآن، لأن الله تعالى قال لإبليس: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ **[الأعراف: 12]** إذن فهو مأمور من الله أيضا مع الملائكة، لكن القرآن دائما يترك مساحات للمستمع أو للقارئ حتى يستوعب ويفهم دون ذكر تفاصيل، وهذه من بلاغة القرآن الكريم، فأنت تفهم أن الملائكة أمرت بالسجود لآدم، وأن إبليس كان من المأمورين بالسجود لآدم، فأبى واستكبر أن يسجد طاعة لأمر الله.

الشاهد أن الله تعالى طرده من الملأ الأعلى أي من السماء كلها، ومسألة الخلق والسجود كانت في الملأ الأعلى، ﴿**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ **[الأعراف: 13]** إذن الآن إبليس غير موجود في السماء ولا في الملأ الأعلى، فلو كان آدم- عليه السلام- في جنة الخلد كيف وسوس له إبليس؟ وكيف وصل إليه إبليس بالوسوسة؟

هذا مستحيل، لأنه ملعون ومطرود من الملأ الأعلى فهو لا يصل إلى الملأ الأعلى، بالإضافة إلى أنه بعد مشهد الوسوسة والأكل من الشجرة، قال تعالى: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾

---

[2] وعلى سبيل التقريب في قصة إسماعيل وإسحاق، البعض يقول إن الذبيح هو إسحاق- عليه السلام-، والجمهور على أن الذبيح هو إسماعيل، والدليل أننا لو قرأنا في سورة هود لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71] فمعنى هذا أن سارة زوج إبراهيم ستنجب إسحاق وأن إسحاق سيعيش حتى ينجب يعقوب، فلو أن الذبيح هو إسحاق وأن الله أمر إبراهيم حين بلغ معه السعي أن يذبح ولده إسحاق، فما معنى البشرى بأن من وراء إسحاق يعقوب؟ إذن فليس المراد هنا أن يكون هو إسحاق إنما الذبيح هو إسماعيل، فالمبشر بالخلف والذرية هو إسحاق، وهذه البشارة سابقة على ولادته، يعني لم يولد بعد، فكيف تبشر بأنها ستنجب؟ وذكر اسمه إسحاق ومن نسله يعقوب، ثم يأمر تعالى حينما يبلغ معه السعي وقبل أن يتزوج أن يذبحه؟ بالإضافة إلى أنه في سورة الصافات بعد ذكر قصة الذبح قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 112] فكيف تجري القصة؟ ويقول الشاب لأبيه (يا أبت افعل ما تؤمر)، ثم يأتي بعد ذلك البشرى بإسحاق، فالبشرى بإسحاق كانت عقب الابتلاء بذبح ولده إسماعيل؛ فالله تعالى من بادئ الأمر قبل أن يخلق آدم قال إني جاعل في الأرض خليفة.

[البقرة: 38] اهبطوا منها، من أي مكان؟ من السماء من الملأ الأعلى، إبليس مطرود من الملأ الأعلى، إذن معنى **(اهبطوا منها)** أي من جنة موجودة في الأرض، آدم وحواء وإبليس، ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ [البقرة: 36] بهذا يتضح لنا هذا المعنى أن آدم لم يكن في جنة الخلد، إنما كان في جنة على الأرض.

وقد يعترض القائلون بأنها جنة الخلد أن الله تعالى قال: (اهبطوا منها) والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل.

والجواب على ذلك: نعم الهبوط يكون من أعلى إلى أسفل فلعل هذه الجنة كانت على ربوة (مكان مرتفع) فاهبط منها إلى الأرض، أو اهبطوا بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، ونبي الله موسى قال لبني إسرائيل: ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ**﴾ [البقرة: 61] وقد سمعت بعض الإخوة من المغرب العربي يقول أحدهم: أنا سأهبط إلى المغرب هذا العام، أنا سأهبط إلى الجزائر هذه الصيف، وهكذا فاهبط هنا ليس معناها أنه سينزل من السماء إلى الأرض إنما سينتقل من جنة في الأرض بربوة إلى مكان آخر من هذه الأرض.

وبناء على ذلك: فإن الله لم يخلق آدم ليعيش في جنة الخلد؛ إنما خلقه ليعبد الله وحده لا شريك له، ويعمر الأرض ويصلحها.

إلى أين المصير؟

من أعظم الأسئلة التي ينبغي أن تشغل قلب كل إنسان: أين المصير بعد هذه الحياة؟ ماذا بعد انقضاء الأعمار، وتوقف الأنفاس، ومفارقة الأهل والأحباب، وترك البيوت والأموال والمناصب؟

هل تنتهي قصة الإنسان حين يوضع في قبره؟ وهل يصبح بعد الموت ترابًا لا بعث بعده ولا حساب؟ أم أن الموت انتقال من دارٍ إلى دار، ومن حياة العمل إلى حياة الجزاء؟

لقد أجاب القرآن عن هذا السؤال جوابًا واضحًا لا غموض فيه، فقال سبحانه:

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ **[آل عمران: 185].**

هذه الآية تلخِّص رحلة الإنسان كلها: حياةٌ قصيرة، ثم موت محتوم، ثم بعث وحساب، ثم مصير إلى جنة أو نار.

الدنيا ليست دار بقاء

فمهما طالت حياة الإنسان فإن نهايتها الموت، ومهما جمع من المال فإنه سيتركه، ومهما علا منصبه فسينزل منه، ومهما قوي جسده فسيضعف، ومهما أحبه الناس فسيحملونه يومًا على أكتافهم، ثم يضعونه في قبره ويعودون.

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26-27]

الموت بداية الرحلة إلى الآخرة

ليس الموت فناءً محضًا، ولا نهايةً للوجود، ولكنه بوابة العبور من الدنيا إلى الآخرة، وانتقال من زمن العمل إلى زمن الجزاء.

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99-100].

البعث حق لا ريب فيه

بعد حياة البرزخ يأتي اليوم الذي يبعث الله فيه الخلائق من قبورهم، حفاةً عراةً، كما بدأهم أول مرة، **قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 51-52].**

إن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على أن يعيده بعد الموت، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء العظام وهي رميم.

وسيخرج الناس من قبورهم لا يحملون أموالهم ولا ألقابهم ولا أنسابهم؛ وإنما يحمل كل واحد منهم سجلَّ أعماله، ويقف الجميع بين يدي الله رب العالمين.

الوقوف بين يدي الله والحساب

إن المصير بعد الحياة وقوفٌ بين يدي ملك الملوك، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا تضيع عنده مظلمة، **قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا**

عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]

بعد الحساب لا يبقى إلا المصير الأبدي: إما جنة وإما نار، إما نعيم لا ينفد، وإما عذاب لا يطاق، **قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7].**

أما أهل الإيمان والتقوى، فيقال لهم: **﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: 46].**

فيدخلون الجنة لا موت فيها، ولا مرض، ولا خوف، ولا حزن، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعظم نعيمها رضا الله والنظر إلى وجهه الكريم.

وأما أهل الكفر والإعراض، ومن مات مصرًّا على ما يسخط الله، فلهم الوعيد الشديد، **قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: 8-11].**

هذا هو المصير، فاختر لنفسك اليوم مصيرها غدًا؛ فإن طريق الجنة يبدأ من هنا، وطريق النار يبدأ من هنا اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاك.

الخلاصة:

1. أن وجود الإنسان في هذه الحياة لم يكن عبثًا، بل خُلق بإرادة الله وعلمه وحكمته لغاية عظيمة.
2. أن معنى استخلاف الإنسان في الأرض يحتمل قيامه بالإصلاح والعمارة وتنفيذ شرع الله، كما يحتمل تعاقب الأجيال وخلافة بعضها بعضًا.
3. أن الإنسان مستخلف فيما آتاه الله من المال والقدرات والنعم، وعليه أن يستعملها فيما يرضي الله وينفع الخلق.
4. أن من حقق العبودية وأصلح في الأرض أدى أمانة الاستخلاف، ومن أطاع الشيطان وأفسد حرم نفسه من هذا الشرف.
5. أن العبادة ليست محصورة في الشعائر، بل تشمل كل عمل صالح يُبتغى به وجه الله، ويوافق شرعه.

6.أن الدنيا دار ابتلاء واختبار، يظهر فيها الصادق من الكاذب، والطائع من العاصي، والمحسن من المسيء.

7.أن طاعة الله واتباع هداه طريق الأمن والسعادة، بينما اتباع الشيطان والهوى طريق الضلال والشقاء.

8.أن الدنيا ليست دار بقاء؛ فكل حيٍّ ميت، وكل ما عليها فانٍ، ولا يبقى إلا الله سبحانه وتعالى.

9.أن الموت ليس فناءً ونهايةً للوجود، بل انتقال من دار العمل إلى حياة البرزخ، ثم إلى دار الحساب والجزاء.

10.أن البعث بعد الموت حق لا ريب فيه، وأن من خلق الإنسان أول مرة قادر على إعادته بعد أن يصير ترابًا.

11.أن الوقوف بين يدي الله حق، وأن جميع الأعمال، صغيرها وكبيرها، مكتوبة في صحائف لا يغادر منها شيء.

12.أن الإنسان يختار في الدنيا الطريق الذي ينتهي به إلى مصيره في الآخرة؛ فطريق الجنة يبدأ بالإيمان والطاعة، وطريق النار يبدأ بالكفر والإعراض والمعصية.

13.أن الواجب على العاقل أن يستعد للقاء الله بالتوبة، والمحافظة على الفرائض، ورد المظالم، والإكثار من الأعمال الصالحة.

14.أن معرفة أصل الإنسان وغاية خلقه ومصيره ينبغي أن تغيِّر نظرته إلى حياته، فيعيش عبدًا لله، متواضعًا، عاملًا، مصلحًا، ومستعدًّا للآخرة.

****

الإنسان في القرآن

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)

[النساء 28]

2-(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) النساء28

أولا / تفسير الآية

ما المراد بـ (ضعْف الإنسان)؟

ثلاثة أقوال للعلماء:

القول الأول: هو الضعف في أصل الخلقة، خلق من نطفة من ماء مهين، ثم يمر بمراحل الخلق في بطن أمه، ثم يخرج من بطنها ضعيفاً لا حول له ولا قوة، ثم يشب قليلاً حتى يكون شابا قويا، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ، ثم يهرم وهو – الضعف بعد القوة – فتضعف الهمة والحركة.

ولهذا قال تعالى: **"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ"** [الروم: 54]

القول الثاني: الضعف هنا معناه قلة الصبر عن النساء، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ **(ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء)** أخرجه البخاري ومسلم.

وكان بعض السلف يقول:" ما يئس الشيطان من أحد إلا وأتاه من قبل النساء" يقصد الافتتان بهن.

القول الثالث: الإنسان ضعيف من جميع الوجوه، كما يقول ابن القيم رحمه الله – بعد أن ذكر بعض أقوال السلف في تفسير الآية –: " والصواب أَن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أَعظم من هذا وأَكثر: فَإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أَسرع من السيل في الحدور " [3] ، فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه.

وأرى أن هذا الرأي هو الأرجح في تفسير أوجُه الضعف البشري في الآية الكريمة بحملها على إطلاقها.

---

[3] طريق الهجرتين " (228/1)

ثانيا / الحكمة من خلق الله الإنسان ضعيفا

الحكمة الأولى: ضعف الإنسان سبب لحركته في الكون:

هذا الضعف ينتج عنه حاجة الإنسان للأشياء، وهذه الحاجة تدفعه للحركة والسعي، فهو يحتاج للطعام والشراب والمسكن والملبس .... الخ، فهذا كله يدفعه للعمل لجلب ما يحتاج إليه وينفعه، وليدفع عن نفسه ما يضره، فجعل الله هذه الحركة في الكون لتدور عجلة الحياة، فلو كان الإنسان قويا مستغنيا ما تحرك ولا سعى.

الحكمة الثانية: الافتقار إلى الله واللجوء إليه:

حينما يركن الإنسان إلى نفسه سيجد الضعف والعجز والتعب، عنده ضغوط في العمل وفِي الدراسة وفِي تربية الأولاد، ضغوط في الحياة بكل ألوانها وأشكالها ما الحل؟

الحل هو بأن تستعين بالله !اركن إلي الله سبحانه وتعالي.

ولما قال نبي الله لوط ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [هود: 80] قال النبي ﷺ: **(رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد) يقصد الله عز وجل) متفق عليه.**

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] هذا هو الحل الوحيد للتغلب على ضعفنا ونقصنا، وقلة حيلتنا وعجزنا، أن نلجأ إلى الله، فلا ملجأ من الله إلا إليه، فإذا افتقرنا نلجأ إليه؛ فهو الغني، فإذا أصابنا الهم والغم نلجأ إليه؛ فلا فارج للهمّ إلا هو، وإذا مرضنا نلجأ إليه؛ فالشفاء بيده والعافية من عنده: **﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾** [الشعراء: 80]

الإنسان الذي يظن أنه ملك الدنيا بعلمه واختراعاته ، وأنه قادر على أن يفعل ما يشاء، تراه ضعيفا أمام قوة الله سبحانه وتعالى، فالإنسان مهما بلغ من القوة فهو ضعيف أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، فلا يغتر بقوته ولا بما مكنه الله سبحانه وتعالى من الإمكانات ، فيا أيها الإنسان، لقد خُلِقت ضعيفاً لتكون قوياً بالله، خُلقت فقيراً لتكون غنياً بالله، خَلَقَت ضعيفاً ليكون ضعفُك دافعاً لك إلى باب الله، لتلوذَ بحماه، وتقْبِل عليه، وتلجأ إليه، ولو أن الإنسان خُلِقَ قوياً لاستغنى بقوته عن الله، فشقي باستغنائه عن الله، فعلاج هذا الضعف باللجوء إلى الله والدعاء.

ومن دعاء النبي -ﷺ (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن ساخطاً على فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السنوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل عليّ غضبك، أو تنزل عليّ سخطك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[4]

أي: يا رب، لا أشكو حالي اعتراضًا على قضائك، وإنما أرفع فقري وعجزي وانكساري إليك وحدك؛ فالشكوى إلى الله عبادة وتوحيد، وليست منافية للصبر، وقوله :ضعف قوتي أي ضعفي في الأسباب الظاهرة، وقلة حيلتي أي انسداد الوسائل، والطريق التي سلكتها لدعوة قومي، وهواني على الناس أي ما وقع عليه من أذى الناس واستخفافهم به وعدم قبولهم دعوته.

وقوله :يا أرحم الراحمين، إلى من تكلني؟ فيه اعتراف أن العبد لا غنى له عن ربه طرفة عين، وأن أشد ما يخافه المؤمن أن يتركه الله إلى نفسه أو إلى الخلق.

وقوله :إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري؟ أي: إن وكلتني إلى عدو يغلظ عليّ أو إلى قريب أو صاحب سلطة يملك أمري فأنا ضعيف، لكن رجائي فيك أنت.

وقوله :إن لم تكن ساخطًا عليّ فلا أبالي من أعظم مقامات العبودية؛ فالمؤمن قد يصبر على فقر، أو مرض، أو أذى، أو خذلان الناس، لكن الذي لا يطيقه هو سخط الله، والمعنى: ما دام البلاء ليس علامة غضب منك يا رب، فأنا راضٍ محتسب.

ثم قال :غير أن عافيتك أوسع لي وهذا أدب كامل؛ فهو لا يتمنى البلاء، ولا يدعي القوة عليه، بل يسأل العافية؛ لأن العافية أوسع وأرحم وأسلم للقلب والدين والدنيا.

---

[4] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير وضعفه الألباني، وذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السيرة النبوية الصحيحة (186/1) وذهب إبراهيم العلي إلى صحته، وبين أن للحديث شاهدًا يقويه ولذلك اعتبره صحيحًا وذكره في كتابه صحيح السيرة النبوية، ص136، وذهب الدكتور عبد الرحمن البر مدرس الحديث وعلومه في جامعة الأزهر أن الحديث بطريقيه قوي مقبول، وخرج طرقه في كتابه الهجرة النبوية المباركة، ص38.

وقوله :أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة فيه توسل إلى الله بصفة من صفاته، وهي نور وجهه الكريم.

وقوله :أن تحل على غضبك أو تنزل على سخطك يؤكد أن أكبر خوف العبد ليس ألم الدنيا، بل غضب الله.

وقوله :ولك العتبى حتى ترضى أي لك الرجوع والرضا والاسترضاء، فأنا راجع إليك، معترف بتقصيري، طالب رضاك حتى ترضى.

وقوله :ولا حول ولا قوة إلا بالله أي لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على طاعة أو صبر أو نجاة إلا بإعانة الله.

وعلم النبي فاطمة ابنته أن تدعو بهذا الدعاء في كل صباح ومساء قال: قولي: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين) رواه النسائي في "السنن الكبرى" وقال الألباني إسناده حسن.

أصلح لي شأني كله :حين يدعو الإنسان يا رب أولادي يا رب شغلي يا رب ديوني... فيعجز لسانه عن عد المشكلات التي يتعرض لها، فالنبي –ﷺ– يلخص لنا ذلك كله ويقول: **(أصلح لي شأني كله)** أصلح لي نفسي، أصلح لي عملي، أصلح لي زوجتي، أصلح لي أولادي، أصلح لي شغلي ... جاري ... والدي... أصلح لي كل شيء، أصلح لي شأني كله.

يا رب أنت وكيلي وكلتك جميع أمري، يا رب أبرأ من الحول والقوة إلا بك...يا رب أنا ضعيف ... أنا فقير ... أنا عاجز... أنا لا أملك من أمري شيئا، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إليّ نفسي طرفة عين.

الحكمة الثالثة: ترك الكبر:

لأن المؤمن إذا عرف قوة الله تواضعَ، فلا يجتمع كبر مع معرفة قوة الله عزَّ وجلَّ، فكلما تمت معرفتك بقوة الله تلاشت قدراتك أمام قوَّته، فأصبحت متواضعاً، ومن يتواضع لله يزيده الله قوةً إلى قوَّته، أما إذا وضعه الله في مكانٍ قوي واعتدَّ بقوَّته فالله عزَّ وجلَّ يجعله مثلاً في الضعف ليتَّعِظ العباد به، ويجعله عبرة لغيره.

وحينما ينسى الإنسان ضعفه يتكبر ويتعالى على الخلق بما أعطاه الله، **قال تعالى:" كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى"** [العلق 6،7]

هذا قارون لما وهبه الله ما وهبه من الكنوز بغى وأفسد في الأرض ولما قيل له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: 77-78] فخسف الله به وبداره الأرض ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ **[القصص: 81]**

وهذا فرعون الذي طغا وبغى ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ **[القصص: 39]** في عز قوته وصولجانه غرق هو وجنوده لا نفعهم ولا نفعوه!!! سبحان الله وكانوا من قبل مستكبرين مفسدين في الأرض، فما كان له من ناصر وما كان له من منقذ .... والأمثلة كثيرة.

فالإنسان حينما يدرك ضعفه وقدرة الله عليه يتواضع ويخبت إلى ربه أما حينما ينسى ذلك يطغى ويفسد في الأرض فيهلكه الله.

قال علىّ بن أبي طالب –رضي الله عنه: يا ابن آدم إن غرتك قوتك فلم استحكمت فيك شهوتك؟!!

ورأى مطرف بن عبد الله بن الشخير المهلب بن أبي صفرة يتبختر في ملابسه وهيئته فقال له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله؟ فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أولك نطفة مذرة[5]، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة، فمضى المهلب وترك مشيته.

[5] مذرة أي فاسدة والمقصود أن يحقر الإنسان نفسه.

ونظم الكلام محمود الوراق فقال:

عجبت من معجب بصورته وكان في الأصل نطفة مذرة

وهو غدا بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قذرة

وهو على تيهه ونخوته ما بين ثوبيه يحمل العذرة

ولما دخل ابن السماك على هارون الرشيد قال عظني وكان بين يدي الرشيد طعاماً فقال: يا أمير المؤمنين أرأيت إن غصت هذه اللقمة في حلقك بكم تفتديها؟
قال: بنصف ملكي، قال: فإن حصرت (الإمساك) فلم تستطع إخراجها؟
قال: بنصف ملكي الآخر، فقال يا أمير المؤمنين فلا تغترن بملك يضيع بين شرقة وعذرة !!!

الحكمة الرابعة: التكليف في حدود الاستطاعة:

جاءت التكاليف الشرعية متوافقة مع الطبيعة التكوينية للإنسان: فالذي خلق الإنسان أعلم بقدراته وضعفه **{أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ}** [الملك: 14] فالتكليف الشرعي يقع ضمن الوسع والإمكان البشري، ويتغير شكل أدائه أو صورته بحسب الاستطاعة لكل مكلف، لتغير أحواله وتقلبه في الحياة بين محطات الابتلاء بالشدة والرخاء، والعسر واليسر، والصحة والمرض، والوجود والعدم، لأن الإنسان خُلق ضعيفاً كلَّفه ضمن طاقته ، قال الله تعالى :**﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾**[سورة البقرة : 286]

وحينما يعجز الإنسان عن فريضة أمر الله بها لمرض أو نحوه يأتي التخفيف من الله، فأجاز له أن يفطر إذا مرض أو سافر فأعفاه من الصيام، وأذن بالتيمم نيابة عن الوضوء والغسل، وشرع الصلاة جالسا للمريض، وهكذا.

الخلاصة:

1. خُلِق الإنسان ضعيفًا في بنيته وقوته وإرادته وعلمه وصبره، وهو محتاج إلى الله في جميع أحواله.
2. يمر الإنسان بمراحل يتقلب فيها بين الضعف والقوة؛ فيبدأ ضعيفًا، ثم يقوى في شبابه، ثم يعود إلى الضعف والشيبة.

3. من أوجه ضعف الإنسان قلة صبره أمام الشهوات والفتن، ولا سيما فتنة النساء بالنسبة إلى الرجال.

4. حاجة الإنسان الناتجة عن ضعفه تدفعه إلى العمل والحركة والسعي لتحصيل الطعام والشراب والمسكن وسائر مصالح الحياة.

5. ضعف الإنسان يذكّره بافتقاره الدائم إلى الله، وأنه لا يستغني عن عونه وتوفيقه طرفة عين.

6. علاج الضعف ليس بالاعتماد على النفس وحدها، بل بالاستعانة بالله، والدعاء، والتوكل عليه، والأخذ بالأسباب المشروعة.

7. مهما بلغ الإنسان من العلم والقوة والإمكانات، فإنه يبقى ضعيفًا أمام قدرة الله تعالى.

8. الشكوى إلى الله ليست اعتراضًا على القدر ولا تنافي الصبر، بل هي عبادة تتضمن إظهار الافتقار والانكسار بين يديه.

9. رضا الله مقدَّم على راحة الدنيا؛ فالمؤمن يصبر على البلاء، لكنه يخاف أن يكون واقعًا في سخط الله.

10. قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» اعتراف بأن العبد لا ينتقل من حال إلى حال، ولا يقدر على طاعة أو صبر، إلا بإعانة الله.

11. أدنى مرض أو عجز قد يسلب الإنسان قوته، مما يدل على ضعف البشر مهما اتسع ملكهم وسلطانهم.

12. شريعة الله تراعي ضعف الإنسان؛ ولذلك جاءت التكاليف في حدود الوسع والاستطاعة.

13. من مظاهر التيسير الشرعي: الفطر للمريض والمسافر، والتيمم عند تعذر استعمال الماء، والصلاة جالسًا لمن عجز عن القيام.

14. الواجب على المسلم أن يجمع بين الافتقار إلى الله والأخذ بالأسباب، فلا يتكل على قدرته ولا يترك العمل بحجة التوكل.

الإنسان في القرآن

﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان

ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾

[سورة يونس:12]

3- ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾

[سورة يونس:12]

فضل الدعاء

الدعاء من أجلِّ العبادات وأعظم القربات، وهو مظهر افتقار العبد إلى ربه، وإقراره بكمال قدرة الله ورحمته وغناه؛ فالعبد ضعيف لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، والله سبحانه هو القادر على كشف الضر، وتفريج الكرب، وتيسير العسير. ولذلك أمر الله عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، فقال تعالى :﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60] وقال سبحانه :﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

والدعاء عبادةٌ محبوبة لله تعالى، وهو سبب لجلب النعم ودفع النقم، وانشراح الصدر، وتفريج الهم، وتثبيت القلب؛ قال رسول الله ﷺ» :الدعاء هو العبادة «رواه أبو داود والترمذي. وكلما اشتدت حاجة العبد، وانقطعت عنه أسباب الخلق، وصدق اضطراره والتجاؤه إلى الله، كان أقرب إلى الإخلاص والانكسار بين يديه.

وقد وعد الله المضطر بإجابة دعائه وكشف كربه، فقال تعالى :﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 62] فهذه الآية دليل صريح على أن الله وحده يجيب دعاء المضطر ويكشف عنه السوء؛ لأن المضطر يكون قد انقطعت به الحيل، وضاقت أمامه السبل، فلم يبق له ملجأ إلا الله سبحانه.

غير أن الواجب على العبد ألا يعرف ربه في وقت الشدة وحده، ثم ينساه بعد انكشافها، بل يدعوه ويطيعه ويشكره في الرخاء والشدة؛ وهذا هو المعنى الذي ترشد إليه آية سورة يونس وتحذر من مخالفته.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12]

تكشف هذه الآية ضعف الإنسان الغافل، فهو يكثر من الدعاء عند نزول البلاء، ثم ينسى فضل الله بعد زواله، ومن هنا يقرر القرآن مبدأً إيمانيًّا عظيمًا: أن المؤمن لا يعرف الله في الشدة وحدها، بل يعبده ويشكره في الرخاء والشدة.

معنى الآية الكريمة

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ الإنْسانُ المُراد بِهِ جِنْسُ الإنسان.

﴿الضُّرُّ﴾ أيْ إذا أصابَهُ جِنْسُ الضُّرِّ مِن مَرَضٍ وفَقْرٍ وغَيْرِهِما مِنَ الشَّدائِدِ.

﴿دَعَانَا﴾ والدُّعاءُ :هُنا الطَّلَبُ والسُّؤالُ بِتَضَرُّعٍ.

﴿لِجَنْبِهِ﴾ أي نائما أو مستلقيا على جنبه لشدة وجعه، واللّامُ في قَوْلِهِ :﴿لِجَنْبِهِ﴾ بِمَعْنى عَلى.

﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي أنه يَدْعُو اللَّهَ في حالَة تتَطَلَّبِ الرّاحَةِ ومُلازِمَةِ السُّكُونِ، أيْ دَعانا في سائِرِ الأحْوالِ لا يُلْهِيهِ عَنْ دُعائِنا شَيْءٌ.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ أي مضى على طريقته التي كان عليها قبل أن يمسه الضر من ترك العبادة، ونسي حالة الجهد والبلاء والضيق والفقر، كأنه لا عهد له به كأنه لم يدعنا من قبل.

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التزيين العجيب أي كما زين له الدعاء عند الضرر والإعراض عند الرخاء، والدعاء عند الضر ليس عملًا مذمومًا حتى يكون هو المزيَّن للمسرفين، وإنما المذموم هو **الإعراض بعد كشف الضر، والاستمرار في الكفر والغفلة والمعصية**.

والتزيين من الشيطان بالوسوسة، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء، والمعنى أنه كما زُيِّن لهذا الإنسان إعراضُه واستمرارُه على غفلته بعد كشف الضر عنه، زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي.

وهنا لفتة بلاغية :أن المسرف هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، ومعلوم أن لذات الدنيا وطيباتها قليلة زائلة في مقابلة سعادة الدار الآخرة، والله تعالى أعطاه الحواس والعقل والفهم والقدرة لاكتساب ذلك، فمن بذل هذه الحواس لأجل أن يفوز بهذه اللذات الدنيوية الخسيسة، كان قد أنفق أشياء عظيمة كثيرة لأجل أن يفوز بأشياء حقيرة خسيسة، فوجب أن يكون من المسرفين.

المعنى العام للآية:

وإذا أصاب الإنسان الشدة استغاث بنا في كشف ذلك عنه، مضطجعا لجنبه أو قاعدا أو قائما، على حسب الحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضر به، فلما كشفنا عنه الشدة التي أصابته استمر على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الشدة والبلاء، وترك الشكر لربه الذي فرج عنه ما كان قد نزل به من البلاء، والسر في هذا أن الإنسان جبل على الضعف والعجز وقلة الصبر، وجبل أيضا على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو، فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع، وإظهار الخضوع والانقياد، وإذا زال البلاء ووقع في الراحة استولى عليه النسيان فنسي إحسان الله تعالى إليه، ووقع في البغي والطغيان والجحود والكفران، وهذه حال الإنسان الغافل الذي لم يهذبه الإيمان؛ أما المؤمن فيصبر عند البلاء، ويشكر عند الرخاء.

وكما زين لهذا الإنسان استمراره على جحوده وعناده بعد كشف الله عنه ما كان فيه من الضر، زين للذين أسرفوا في الكذب على الله وعلى أنبيائه ما كانوا يعملون من معاصي الله والشرك به.

تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة

الدعاء نعمة كبرى، أنعم بها ربُّنا جل وعلا حيث أمرنا بالدعاء، ووعدنا بالإجابة والإثابة؛ فشأن الدعاء عظيم، ومنزلته عالية في الدين، فما اسْتُجْلِبت النعم بمثله، ولا استُدْفِعت النقم بمثله، والدعاء عبادة لله، وتوكُّل عليه، والدعاء سبب عظيم لانشراح الصدر، وتفريج الهم، ودفع غضب الله سبحانه، والدعاء مَفْزَع المظلومين، وملجأ المستضعفين، وأمان الخائفين، فما أشد حاجتنا إلى الدعاء! بل ما أعظم ضرورتنا إليه! قال الله تعالى :﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:60]

وقال تعالى :﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:186]

ومَن كانَتْ عادَتُهُ أنْ يَكُونَ عِنْدَ نُزُولِ البَلاءِ كَثِيرَ التَّضَرُّعِ والدُّعاءِ، وعِنْدَ زَوالِ البَلاءِ ونُزُولِ الآلاءِ مُعْرِضًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ مُتَغافِلًا عَنْهُ غَيْرَ مُشْتَغِلٍ بِشُكْرِهِ، كانَ مُسْرِفًا في أمْرِ دِينِهِ مُتَجاوِزًا لِلْحَدِّ في الغَفْلَةِ عَنْهُ.

وفي الحديث " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة" والرخاء ضد الشِّدّة، وحال الرخاء يشمل كل أحوال الإنسان الاعتيادية، أما الشدائد فهي عارضة وليست دائمة.

والمعنى :الزم طاعته وحقوقه في الرخاء، يحفظك ويعينك في الشدة؛ وليس معناه أن الله لم يكن عالمًا بالعبد ثم عرفه.

والعبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه فقد تعرف بذلك إلى الله وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة فعرفه ربه في الشدة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه.

وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يروي عن ربه جل وعلا: **(ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه) وفي رواية ولئن دعاني لأجيبنه"**

فالمسلم يلجأ إلى الله تعالى في أحواله كلها؛ في سرَّائه وضرَّائه، وشدَّته ورخائه، وصحته وسقمه، فلا يقتصر ذلك في حال الشدة فقط إذ إن ملازمةُ المسلم للطاعة والدعاء حال الرخاءِ، ومواظبته على ذلك في حال السرَّاء سببٌ عظيمٌ لإجابة الدعاء عند الشدائد، والمصائب، والكُرَب، والبلاء.

وقد جاء عن النبيَّ ﷺ قال: (مَن سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فلْيُكثِر من الدعاءَ في الرخاء) رواه الترمذي

قال ابن رجب رحمه الله :"معرفة العبد لربه نوعان:

أحدُهما: المعرفةُ العامة، وهي معرفةُ الإقرار به والتَّصديق والإيمان، وهذه عامةٌ للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميلَ القلب إلى الله بالكلية، والانقطاعَ إليه، والأُنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: مساكينُ أهلُ الدُّنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيبَ ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: معرفةُ الله عز وجل".

ثم قال: ومعرفة الله أيضاً لعبده نوعان:

معرفة عامة وهي علمه سبحانه بعباده، واطِّلاعه على ما أسرُّوه وما أعلنوه، كما قال :﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: 16] **وقال:** ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾ [النجم: 32]

والثاني: معرفة خاصة وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبَه إليه، وإجابةَ دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله -ﷺ- فيما يحكى عن ربِّه :"**ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، فلئن سألني، لأُعطِيَنَّهُ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه**" .ا. هـ

مقارنة بين يونس وفرعون:

معرفة الله والإيمان به وتعظيمه ليس شيئا طارئا لينقذ الإنسان نفسه من الهلكة كما فعل عدو الله فرعون حينما أدركه الغرق لجأ إلى الله وقال: ﴿**آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**﴾ [يونس: 90-92] ومن الملفت للنظر أن المد في قوله تعالى: (**آلآن**) مد لازم يجب مده ست حركات "**آلآن**" لم تعرف أن لك إلها تؤمن به إلا الآن؟

أمَّا يونس -عليه السلام- حين ابتلعَهُ الحوت ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: 87]

لماذا قُبِلَت هذه الكلمة من يونس ولم تُقبل من فرعون؟

لم يكن دعاء يونس عليه السلام إيمانًا طارئًا عند الهلاك؛ بل كان دعاء نبي موحِّد عُرف بالتسبيح والعبادة قبل البلاء، ولذلك قال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [الصافات: 143-144].

أما فرعون فلم يعلن الإيمان إلا حين أدركه الغرق وعاين العذاب، فلم ينفعه إيمانه الاضطراري.

فرعون قال بكل كبر وغرور: ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ [النازعات: 24]

أما يونس-**عليه السلام**- نادى وهو مكظوم ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: 87] وخاطب الله خطاب من يعرف ربه: **(أنت، وسبحانك)** وهذا خطاب من امتلأ قلبه بتعظيم الله ومراقبته وحسن الظن به.

أما فرعون فماذا قال؟ **قال" لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل "**سمع أنه يوجد إله أمنت به بنو إسرائيل، فلما اصابه الغرق شعَر أن إله بني إسرائيل هو الذي أغرقه فقال**" آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل"**

قصة أصحاب الغار

قص النبي عليه السلام خبر الثلاثة من بني إسرائيل آواهم المبيت إلى غار فتدهدت[6]عليهم صخرة عظيمة أغلقت فم الغار؛ فإذا الغار صندوق مغلق محكم الإغلاق، مقفل موثق الإقفال؛ إن نادوا فلن يسمع نداؤهم، وإن استنجدوا فلا أحد ينجدهم، وإن دفعوا فسواعدهم أضعف وأعجز من أن تدفع صخرة عظيمة سدت فم الغار، وكانت كربة شديدة؛ فلم يجدوا وسيلة يتوسلون بها في هذه الشدة إلا أن يتذكروا معاملتهم في الرخاء، فدعوا الله في الشدة بصالح أعمالهم في الرخاء.

دعا أحدهم متوسلا إلى الله ببره والديه، يوم أتى فوجدهما نائمين، وطعامهما قدح من لبن في يده، وصبيته يتضاغون(يبكون) من الجوع، وكان بين خيارين إما أن

---

[6] تدهدت: انحدرت

يوقظ الوالدين من النوم، وإما أن يطعم الصبية!! فلم يختر أيًا من هذين الخيارين، ولكن اختار خيارًا ثالثًا وهو أن يقف والقدح على يده والصبية يتضاغون عند قدميه، ينتظر استيقاظ الوالدين الكبيرين، والوالدان مستغرقين في النوم حتى انبلج الصبح وأسفر الفجر فاستيقظا، وبدأ بهما وأعرض عن حنان الأبوة وقدم عليه حنان البنوة على الأبوة فشرب أبواه وانتظر بنوه.

فدعا الله قائلا: "اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه".

ثم دعا الآخر، فتوسل إلى الله بخشيته لله ومراقبته يوم أن قدر على المعصية، وتمكن من الفاحشة ووصل إلى أحب الناس إليه، ابنة عمه، بعد أن اشتاق إليها طويلاً وراودها كثيرًا وحاول فأعيته المحاولة، حتى إذا أمكنته الفرصة واستطاع أن يصل إلى شهوته، وينال لذته خاطبت فيه تلك المرأة مراقبة الله فقالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فارتعد القلب واقشعر الجلد، ووجفت النفس وتذكر مراقبة الله تعالى فوقه، فقام عنها، وهي أحب الناس إليه وترك المال الذي أعطاها.

فدعا الله قائلا: "اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه".

ودعا الثالث فتوسل بعمل صالح قربه، وهو الصدق والأمانة حيث استأجر أجراء فأعطاهم أجرهم، وبقي واحد لم يأخذ أجره فنمّاه وضارب فيه، فإذا عبيد وماشية وثمر، ثم جاء الأجير بعد زمن طويل يقول: أعطني حقي.

فكان أمينًا غاية الأمانة، نزيهًا غاية النزاهة، فقال: حقك ما تراه، كل هذا الرقيق، وكل هذه الماشية، كلها لك، فكانت مفاجأة لم يستوعبها عقل هذا الأجير الفقير، فقال: "اتق الله ولا تستهزئ بي" فقال: يا عبد الله إني لا أستهزئ بك، إن هذا كله لك، فاستاقه جميعًا، ولم يترك له شيئًا.

فدعا الله قائلا: "اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه"

وتقبل الله دعواتهم، فإذا الشدة تنفرج والضيق يتسع، وإذا النور يشع من جديد فيخرجون من الغار يمشون.

تاب في الطائرة ثم انتكس

يقول الدكتور خالد حنفي[7]**:** حدثني من أثق به أن صديقا له كان مسافرا وقبل هبوط الطائرة في بلده العربي أخبرهم قائدها أن خللا وقع في إطارات الطائرة وأن الهبوط قد يؤدى إلى أن يفقد الجميع حياته!!!

وهنا فزع إلى جوار راوي القصة رجل انخرط في نوبة بكاء شديدة، وتحدث إلى هذا الأخ أنه نهب ميراث أولاد أخيه وخان الأمانة، وأنه الآن نادم على ما فعل تائب إلى الله منه ..... وطلب منه إن كتب الله له الحياة أن يرد هذه الأموال إلى أولاد أخيه وأن يطلب منهم العفو والمسامحة ..... وأثنى الأخ على صنيعه ودعا له وهو يؤمّن، وهما يبكيان، بل كان هذا حال كل من في الطائرة بعد أن أحاط الموت بهم.

وبعد دقائق هبطت الطائرة بسلام ونجى الله جميع من فيها.

وقبل خروجهم منها قال الرجل التائب لمن عاهده: انس الموضوع ...كأنك لم تسمع منى شيئا وإياك أن تخبر به أحدا!! المال مالي ولا حق لأحد فيه!

الخلاصة:

1. بيان ضعف الإنسان وافتقاره إلى الله؛ إذ يلجأ إليه عند نزول المرض والفقر وسائر الشدائد.
2. التحذير من نسيان نعمة الله بعد زوال البلاء، والعودة إلى الغفلة والمعصية كأن الشدة لم تقع.
3. وجوب شكر الله عند تجدد النعم وزوال النقم، وعدم مقابلة الإحسان بالجحود والكفران.
4. أن دعاء الله عبادة عظيمة، وسبب لجلب النعم، ودفع البلاء، وتفريج الهموم والكربات.

---

(7) الأستاذ الدكتور خالد محمد عبد الواحد حنفي، عالم أزهري مصري مقيم في ألمانيا، متخصص في الفقه وأصول الفقه وفقه الأقليات المسلمة، ويشغل حاليًا منصب عميد الكلية الأوروبية للعلوم الإنسانية بألمانيا، وهو نائب رئيس المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، ورئيس مجلس الأئمة والعلماء بألمانيا، وقد ذكر القصة على صفحته الشخصية على الفيسبوك.

5.أن المؤمن يلجأ إلى الله في جميع أحواله: في السراء والضراء، والصحة والمرض، والرخاء والشدة.

6.أن ملازمة الطاعة والدعاء في الرخاء من أعظم أسباب إجابة الدعاء والنجاة عند الشدائد.

7.أن معنى «تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»: احفظ حدود الله وحقوقه في حال السعة، يتولاك الله برحمته وتوفيقه عند الكرب.

8.أن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء يزيِّنان للإنسان الغفلة والإعراض عن الشكر بعد انكشاف الضر.

9.وجوب صدق التوبة بالندم والإقلاع ورد الحقوق إلى أهلها، وعدم نقض العهود مع الله بعد زوال الخوف.

****

الإنسان في القرآن

الشيطان والإنسان

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ

لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

[يوسف: 5]

4- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: 5]

ما الحكمة من خلق إبليس؟

يتساءل بعض الناس قائلا: لماذا خلق الله إبليس يوسوس لي ويزين لي المعصية؟ وللإجابة عن هذا السؤال لابد من مقدمة، وهي أن نفهم طبيعة المخلوقات التي خلقها الله عز وجل:

الملائكة:

خلق الله تعالى الملائكة وجعلها مجبولة (مفطورة)على طاعته فالملائكة لا تعرف إلا طاعة الله، ليس عند الملائكة خيار الطاعة والمعصية أو الإيمان والكفر، قال تعالى: **(يسبحون الليل والنهار لا يفترون)** [الأنبياء/20] فالملائكة في عبادة دائمة لله عز وجل لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون وليس فيهم ذكور وإناث، وبالتالي لا زواج ولا ذرية، هكذا خلقوا من الله عز وجل بكلمة كن فكانوا.

الجن والإنس:

خلق الله الجن والإنس، وجعلهم مختارين مكلفين، ليسوا مجبولين على الطاعة فقط كالملائكة؛ ولا مجبرين على المعصية، إنما أقدرهم الله على فعل الطاعة والمعصية، والخير والشر، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس: 7-8] والإلهام هنا معناه الإلهام الغريزي، والقدرة على فعل الشيء أو تركه، ثم الحساب والجزاء غدا بين يدي الله يوم يقوم الناس لرب العالمين.

عداوة الشيطان لبني الإنسان:

بعد أن سوّى الله آدم ونفخ فيه الروح، أمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تكريم بأمر الله سبحانه، فسجدوا كلهم إلا إبليس، **قال تعالى:** ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34] ولم تكن معصية إبليس مجرد امتناع عن فعل، بل كشف القرآن عن الداء الذي أهلكه : **إنه داء الكبر** عندما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12] نظر إلى نفسه، ونظر إلى مادة الخلق، واعترض على أمر الله، فجمع الكبر والحسد والعصيان.
ومنذ تلك اللحظة أعلن إبليس حربه على بني آدم، فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16-17]
فالشيطان يترصد الإنسان وهو يسير إلى الله، يثبطه عن الطاعة، ويزين له المعصية، ويهون عليه الذنب، ويسوف له التوبة، ويفتح له أبواب الغفلة، فإذا لم يستطع أن يمنعه من الخير حاول أن يفسد عليه نيته، أو يدخله في العجب والرياء، أو يشغله بالمفضول عن الفاضل.
ثم أسكن الله آدم وزوجه الجنة، وأباح لهما خيرها، ونهاهما عن شجرة واحدة:
﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35] ولكن العدو الذي توعد آدم وذريته بدأ أول معركة من معارك الإغواء فَوَسْوَسَ لَهُمَا وزين لهما ما نهاهما الله عنه، وأقسم لهما: إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ، وهكذا يفعل الشيطان إلى يومنا هذا: لا يأتي المعصية غالبًا فيقول للإنسان هذه معصية فافعلها، ولكنه يكسوها بثوب جميل، ويسمي الأشياء بغير أسمائها، ويعد ويمني، حتى يرى المرء الشر خيرًا والخير شاقًا ثقيلًا.

فوقع آدم في المعصية، لكن هنا يظهر فرق عظيم بين طريق آدم وطريق إبليس؛ إبليس عصى فاستكبر وعاند وأصر على عصيانه، وآدم زل ثم عرف ذنبه وانكسر بين يدي ربه: قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

الحكمة من خلق إبليس

1- ظهور عبودية أنبيائه وأوليائه بالاستعاذة من الشيطان الرجيم:

ويستعينون بالله في دفعه ودفع وساوسه، ونحن نتعبد لله بقولنا: أعوذ بالله من

الشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 200-201] وقال جل شأنه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 98-100]

وكان النبي ﷺ يستفتح الصلاة بقوله: **"أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه"**

همزه: وساوسه، ونفخه: الكبر، ونفثه: كل كلام قبيح أو شعر حرام.

2- أن هذا من باب إظهار الشيء وضده:

كما يقولون في اللغة العربية وبضدها تتميز الأشياء، فخلق الله النفس الطاهرة جبريل رسول الله من الملائكة الذي ينزل بالوحي على الرسل، وقدر الله سبحانه وتعالى خلق النفس الخبيثة إبليس الذي اختار طريق الكفر والعصيان، وأصر عليه، وسعى في إغواء بني آدم، وخلق الله السماوات والأرض والبياض والسواد والحرارة والبرودة .... الخ، فخلق الشيء وضده لتتميز الأشياء فما كنا لنعرف الخير ووضوحه وصفاءه إلا بعد أن نرى الشر وظلمته وسواده.

3- مجاهدة النفس:

ومن الحكم أننا ما كنا لنعرف الطاعة إلا بالمجاهدة لترك المعاصي، والاستعانة بالله سبحانه وتعالى، وإلا بمعرفة كلام الله حينما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 5-6]

والأمر هنا ليس فقط أن نعلم أن الشيطان عدو، بل ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أي عاملوه معاملة العدو.

فإذا أمرك بتأخير الصلاة فخالفه.

وإذا وسوس لك أن التوبة ما زالت بعيدة فبادر.

وإذا زين لك الحرام فاذكر عاقبته.

وإذا أوحى إليك باليأس من رحمة الله فاعلم أنه يريد أن يقطعك عن ربك.

وإذا أغراك بالكبر فتذكر أصل أبيك آدم من تراب.
وإذا دفعك إلى الحسد فتذكر أن أول معصية أهلكت إبليس بعد كبره كانت حسده لآدم.
والشيطان مهما بلغ كيده فهو ضعيف أمام عبد متصل بالله.

4- مشروعية التوبة:

ومن الحكم أن الله شرع التوبة لكل من عصى وشرد عن طريق الله وطاعته، فمن وفّقه الله للتوبة ألقى في قلبه الندم والإنابة، فتاب واستغفر واستشعر معنى التوبة، والرجوع إلى الله عز وجل، ويستغفر الله، فما كان ذلك ليحدث ونحن على الطاعة الدائمة وهذا ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما **قال: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم غيركم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)، وقال: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطّائين التوابون)** ومن الخطأ الكبير مظنة أن هذا الحديث معناه أنه لا بد من الوقوع في المعاصي، وهذا ليس مقصودا من الحديث، بل المفهوم التشجيع على التوبة ؛ فيا من أذنبت قد شرع الله لك التوبة، ويامن بعدت عن الله واتبعت طريق الشيطان ارجع إلى طريق الرحمن، تب إلى الله واستغفر ربك ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 106]

كيد الشيطان

ما هو الكيد؟ الكيد هو التدبير الخفي لإيقاع الضرر بالغير، وكيد الشيطان ضعيف أمام الإيمان والاستعانة بالله.
وبعض الناس بسبب الحديث الكثير عن الشيطان يظن أنه قوي وعنده بأس شديد، كلا فإن الشيطان وجنوده من أضعف ما يكونون، وكيد الشيطان ضعيف لسببين:

الأول: أنه لا يملك قوة يقهر بها جسدا، ولا يملك حجة يقهر بها قلبا، وقهر الجسد أن تفعل الفعل وأنت كاره، كأن يتوعدك ويهدِّدك إن لم تفعل ليفعلن بك ما يسوؤك، كما ورد في خطبته لأهل جهنم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22]
أما قهر القلب فهو بالحجة والبرهان، والشيطان لا هو بالجبار الذي يقهرك على فعل شيء، ولا هو بصاحب الحجة البالغة التي تأسر روحك ويغير بها قناعاتك، فلا

قوة له ولا حجة، تصمدان أمام قوة الحق.

الثاني: أن أولياء الرحمن قال الله عنهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201] بمجرد شعورهم بالوسوسة وكيد الشيطان يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم فيذهب الله عنهم ذلك ،أما أولياء الشيطان إذا استنصروا به فإنه لا يملك أن ينصرهم ، فهو مع أوليائه جبان ضعيف هزيل ، ونحن ولينا الله عز وجل فإذا استنصرنا بالله أذهب عنا الشيطان ورجسه ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 98-100] والمقصود هنا سلطان الإغواء والتزيين على من يتولونه ويطيعونه، وليس سلطان الإكراه الذي يسلب الإنسان اختياره، فسلطانه على أوليائه فقط الذين يتبعونه ويستجيبون له ، نسأل الله أن نكون من أولياء الرحمن ، اللهم آمين.

كيفية الوقاية من الشيطان

للوقاية من الشيطان ووساوسه لا يكفي أن يعرف المؤمن عداوته، بل عليه أن يأخذ بأسباب عملية ثابتة من الكتاب والسنة، من أهمها:

1. تحقيق الإخلاص والعبودية لله

فالإخلاص أعظم حصن من تسلط الشيطان؛ قال تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82-83]

2. الاستعاذة بالله فور ورود الوسوسة

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200] فيقول المؤمن إذا شعر بوسوسته: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ولا يناقش المؤمن الوساوس ولا يبحث لها عن أجوبة؛ لأن من مقاصد الشيطان إشغاله وإدخاله الشك عليه، قال النبي ﷺ في الوساوس: (فليستعذ بالله ولينته) متفق عليه. ومعنى «ولينته»: يقطع التفكير فيها ولا يسترسل معها.

3. الصلاة:

الصلاة صلة بالله وحصن من الشيطان، **قال تعالى:** ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾ [العنكبوت: 45] وقال النبي عن صلاة الجماعة: «**مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاَةُ إِلاَّ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ**» (رواه أبو داود).

وأوصانا أيضا بعمارة بيوتنا بصلاة النافلة لتكون بركة ونورا لبيوتنا، كما قال النبي ﷺ (**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبوراً**).

والمعنى لا تجعلوا البيوت مثل المقابر لا تصلون فيها؛ لأن المقابر لا يُصلى فيها، فنوّر بيتك بالصلاة فيه، وهذا في صلاة النافلة بالنسبة للرجال، أو في صلاة الفريضة إذا تعذر عليك صلاتها بالمسجد لفوات وقت الجماعة.

4. قراءة سورة البقرة في البيت:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «لَا تَجْعَلُوا بيوتكم قبورا إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة» رواه مُسْلِمٍ

وقال عَبْدِ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ الشيطان يفرّ من البيت يُسْمَعُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ. صححه الألباني

وعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ولا يستطيعها الْبَطَلَةُ» أي السحرة، وَمَعْنَى لَا تَسْتَطِيعُهَا أَيْ لَا يُمْكِنُهُمْ حِفْظُهَا وَقِيلَ لَا يستطيعون إلحاق الأذى بقَارِئِهَا

وأما تقييد قراءة البقرة في كل ثلاثة أيام، أو أن الشياطين لا تدخله ثلاثة أيام فقد وَرَد في ذلك حديث ضعيف، وهو بِلفظ :(**إن لكل شيء سناما، وإن سنام القرآن سورة البقرة؛ مَن قَرأها في بيته ليلا لم يَدخل الشيطان بيته ثلاث ليال، ومَن قَرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام.**) **رواه ابن حبان، وقد أورده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، وصحح الحديث بلفظ آخر، وهو :(إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تُقرأ؛ خرج من البيت الذي يُقرأ فيه سورة البقرة)**

وورد حديث في فضل قراءة الآيتين اللتين ختمت بهما سورة البقرة، وأنهما إذا

قرئتا في دار لم يقربها الشيطان ثلاث ليال، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله كَتَب كِتابا قبل أن يَخْلق السماوات والأرض بألْفَيّ عام، فأنزل منه آيتين فَخَتَم بهما سورة البقرة، ولا تُقْرآن في دارٍ ثلاث ليالٍ فَيَقْربها الشيطان.) رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه الألباني.

5. ذكر الله -سبحانه وتعالى:

والغفلة عن ذكر الله تفتح باب الشيطان، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: 36]، **وقال النبي ﷺ: (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت) رواه البخاري.**

عن جابر بن عبد الله أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:" إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء". رواه مسلم

واستحب العلماء إلقاء السلام حتى ولو كان البيت خاليا لأن بيت المسلم لا يخلو من الملائكة إن شاء الله كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾ [النور: 61] وضبطها بعض العلماء بأن تقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وأيضا قول «لا إله إلا الله وحده لا شريك له...» مئة مرة، قال النبي ﷺ (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرة... كانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي) متفق عليه.

وذكر الله عند الاستيقاظ من النوم قال النبي ﷺ :(يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد... فإن قام فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس) متفق عليه.

6. قراءة آية الكرسي قبل النوم:

قال ﷺ في شأن آية الكرسي: «إذا أوَيْتَ إلى فِراشِكَ فاقرأ آيَةَ الكُرْسِيِّ فإنه لَنْ يَزالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حافِظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شَيْطانٌ حَتَّى تُصْبِحَ» (رواه البخاري).

7. قراءة المعوذات صباحًا ومساءً وعند النوم

قال النبي ﷺ لعبد الله بن خبيب: (اقرأ: قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء) رواه أبو داود

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه، ونفث فيهما، وقرأ الإخلاص والفلق والناس، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، ويفعل ذلك ثلاث مرات؛ رواه البخاري.

8. مخالفة الشيطان عند الغضب

كان رجلان يستبان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما، فقال ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) متفق عليه.

9. التوبة والاستغفار سريعًا بعد الوقوع في الذنب

يأتي الشيطان إلى الإنسان، الذي يريد أن يتوب ويرجع إلى الله تعالى، فيقول له: ماذا فعلت حتى تتوب؟ أنت بالنسبة لغيرك من أفضل الناس، إنما التوبة لأصحاب المعاصي الكبيرة، وأنت لست منهم، فيهون عليه المعصية لكي يستمر عليها، وقد يأتي للعاصي فيقول له: إن الله تعالى لن يقبل توبتك، فقد فعلت كبائر الذنوب، ويذكره بكل معصية كان يفعلها حتى يجعله ييأس من رحمة الله التي وسعت كل شيء.

الخلاصة:

1. خلق الله الملائكة مطيعين له، يسبحونه ويعبدونه ولا يعصون أمره.
2. خلق الله الجن والإنس مكلَّفين، وبيّن لهم طريق الخير والشر، وجعلهم مسؤولين عن اختياراتهم وأعمالهم.
3. إبليس من الجن، وقد عصى أمر الله حين رفض السجود لآدم، وكان سبب هلاكه الكبر والاعتراض على أمر الله.
4. أعلن إبليس عداوته لآدم وذريته، وتعهد بإغوائهم وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

5.يعتمد الشيطان في إغواء الإنسان على تزيين المعصية، وتهوين الذنب، وتسويف التوبة، وإفساد النيات، والدعوة إلى الرياء والعُجب.

6.يختلف طريق آدم عن طريق إبليس؛ فآدم أخطأ ثم اعترف بذنبه وتاب، أما إبليس فعصى واستكبر وأصر على معصيته.

7.من حِكم خلق إبليس ظهور عبودية الاستعاذة بالله، والتوكل عليه، واللجوء إليه لدفع وساوس الشيطان.

8.من الحكم تمييز الخير من الشر، وظهور فضل الطاعة وقبح المعصية، وتمييز المؤمن الصادق من غيره.

9.من الحكم ظهور عبودية التوبة والاستغفار؛ فالمؤمن إذا أذنب لا يصر على ذنبه، بل يرجع إلى الله ويندم ويستغفر.

10.الأحاديث التي تبين فضل التوبة لا تدعو إلى ارتكاب المعاصي، وإنما تفتح باب الرجاء أمام المذنب وتحذره من اليأس.

11.كيد الشيطان ضعيف؛ لأنه لا يستطيع إجبار الإنسان على المعصية، وإنما يوسوس له ويزيّن الباطل ويدعوه إليه.

12.يضعف كيد الشيطان أمام المؤمن الذي يذكر الله، ويستعيذ به، ويتوكل عليه، ويتمسك بالحق.

13.ينبغي الاستعاذة بالله فور ورود الوسوسة، وقطع التفكير فيها، وعدم الاسترسال في مناقشتها.

14.يجب المبادرة إلى التوبة بعد الذنب وعدم الاستجابة لتزيين الشيطان للمعصية أو تخويفه المذنب من عدم قبول توبته.

الإنسان في القرآن

﴿إن الإنسان

لظلوم كفار﴾

[سورة إبراهيم: 34]

5- ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾

[سورة إبراهيم: 34]

قال تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]

معنى الآية الكريمة

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) أعطاكم الله من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجاتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال[8] ، وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

(وإن تعدوا نعمة الله) أي: نعم الله، والمقصود بإفراد اللفظ جنس النعم، كقولنا: إنسان ويقصد به جنس الإنسان وليس شخصا بعينه.

(لا تحصوها) لا تطيقوا عدها فضلا عن قيامكم بشكرها، والإحصاء: ضبط العدد وتحديده، مأخوذ من الحصا، وهو صغار الحجارة لأن العرب كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للخطأ.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) والمراد بالإنسان جنس الإنسان باعتبار غلبة الظلم وكفران النعم عليه، إلا من هدى الله، وقيل بل المراد الإنسان الكافر كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ **[مريم: 66]** أى: إن الإنسان

---

[8] المقصود: بلسان المقال :أن يطلب الإنسان حاجته من الله بالكلام والدعاء الصريح، كأن يقول :اللهم ارزقني، اللهم اشفني، اللهم احفظني. أما بلسان الحال :أن تدلَّ حالة الإنسان وحاجته وفقره على ما يحتاج إليه، وإن لم يطلبه بلسانه؛ فالرضيع مثلًا محتاج إلى الطعام والرعاية، وحاله يدل على حاجته وإن لم يستطع الكلام، والإنسان محتاج إلى الهواء والماء والصحة، وقد منحه الله ذلك قبل أن يسأله. فمعنى الآية: أن الله أعطى عباده مما طلبوه بألسنتهم، ومما دلَّت أحوالهم وحاجاتهم على افتقارهم إليه، بل وأعطاهم نعمًا كثيرة لم تخطر لهم على بال.

الكافر شديد الظلم لنفسه بعبادته لغير الله تعالى، وشديد الجحود والكفران لنعمه عز وجل.

(لَظَلُومٌ) أى لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه أي: ظالم لنفسه بالمعصية، كافر بربه عز وجل في نعمته.

(كفار) أى: شديد كفران نعم الله عليه، جاحد لها، غير شاكر لله عليها كما ينبغي.

لفتة بلاغية بين آية سورة إبراهيم وآية سورة النحل:

قال تعالى: ﴿**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [إبراهيم: 34] **وقال سبحانه:** ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النحل: 18] وهنا وقفة لطيفة، فتجد أن الله ختم الآيتين بخاتمتين مختلفتين؛ ففي سورة إبراهيم ختمت بقوله تعالى: **{إن الإنسان لظلوم كفار}**، وأما في سورة النحل فختمت بقوله تعالى: **{إن الله لغفور رحيم}** فما تعليل ذلك؟

التعليل والله أعلم أن كل خاتمة جاءت مناسبة لسياق السورة والآيات التي قبلها.

في سورة إبراهيم قال الله تعالى: **{إن الإنسان لظلوم كفار}** لأن السياق هنا في بيان كثرة نعم الله على الإنسان، ومع ذلك فإن كثيرًا من الناس يقابلون هذه النعم بالظلم والكفر والجحود، فالإنسان يظلم نفسه بالمعاصي، ويظلم غيره، ويكفر النعمة بعدم شكرها، أو بشكر غير الله من الآلهة المزعومة باستعمالها في غير طاعة الله.

فناسب أن تختم الآية ببيان حال الإنسان عند التقصير: نِعَم كثيرة لا تُحصى، ومع ذلك الإنسان ظلوم كفار.

أما في سورة النحل، فالسورة أصلًا تسمى عند كثير من العلماء سورة النعم؛ لأنها تذكر نعم الله المتتابعة: خلق السماوات والأرض، الأنعام، المطر، الزروع، الليل والنهار، البحر، الجبال، السبل، وغير ذلك.

وقبل هذه الآية جاء ذكر نعم عظيمة تدل على رحمة الله بعباده، ثم ختم الآية بقوله:

(إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) لأن المعنى: مهما قصرتم في شكر هذه النعم، فإن الله لا يعاجلكم بالعقوبة، بل يمهلكم، ويغفر لمن تاب، ويرحم عباده مع تقصيرهم.

فناسب أن تختم الآية ببيان فضل الله: نِعَم كثيرة لا تُحصى، ومع تقصير العباد فالله غفور رحيم.

والفرق اللطيف بين الخاتمتين: في سورة إبراهيم: النظر إلى حال الإنسان مع النعمة، فجاء: **{إن الإنسان لظلوم كفار}**، وفي سورة النحل: النظر إلى حال الله مع عباده رغم تقصيرهم، فجاء: **{إن الله لغفور رحيم}**

فالآيتان تجمعان بين حقيقتين عظيمتين: تقصير الإنسان في الشكر، وسعة رحمة الله ومغفرته.

منزلة الشكر في الإسلام

يقول ابن القيم: "وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات؛ لأنَّ الإيمان ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفُهُ صبرٌ ونصفه شكرٌ؛ فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوةُ إيمانِه، وآياتُ الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر؛ فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركًا متبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا، فلا تكون الآياتُ نافعةً له ولا مؤثِّرةً فيه إيمانًا." [9]

ولعل ابن القيم يشير إلى حديث رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الذي قَالَ فيه:" عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ! إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ!! وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ." رواه مسلم

حقيقة الشكر وأركانه

حقيقة الشكر كما قال ابن القيّم في "مدارج السالكين":" الشّكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا، وعلى قلبه شهودا ومحبّة، وعلى جوارحه انقيادا وطاعة[10] **"**

إذن الشّكر يكون بالقلب واللّسان والجوارح:

---

[9] الفوائد ص 190

[10] مدارج السالكين (2/ 244)

أمّا بالقلب فهو اعتراف القلب بأن النعمة من الله، وشهود فضله، ومحبته والخضوع له وعدم الاغترار بالنعمة.

وأمّا باللّسان: فهو إظهار الشّكر لله بالتّحميد، والثناء على الله، وإظهار الرضا بقضائه وعن عطائه.

وأمّا بالجوارح: فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتّوقّي من الاستعانة بها على معصيته، فمن شكر العينين والأذن ألا تتتبعا عورات المسلمين، وأن يستر الإنسان ما يُشرع ستره، أما ما يترتب على كتمانه ضرر أو ضياع حق فيتعامل معه وفق أحكام النصيحة والإنكار والشهادة.

ومن هنا يتبين لنا أن أركان الشكر ثلاثة هي:

- الاعتراف بالنعمة أولا.
- ثم الثناء على المنعم ثانيا.
- ثم العمل بالجوارح في طاعة الله ثالثا.

وإلى الشرح والتفصيل:

أولا: الاعتراف بالنعمة:

ومعنى الاعتراف بالنعمة: أي تعترف وتوقن أن الذي أولاك تلك النعمة هو الله؛ وما العبد إلا وسيلة فقط للحصول عليها؛ فلا تنسب النعمة للعبد وتنس الرب؛ لأن هذا فعل الجهال الذين في عقيدتهم زيف وضلال؛ فهم ينسبون النعم لغير بارئها؛

فعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فيما يبلغ عن رب العزة جل جلاله:" أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ. "[متفق عليه].

وهذا نبينا ﷺ يقول في كل صباح:" اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أو بأحد من خلقك فَمِنْكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لك فلك الحمد ولك الشكر " (أبوداود)

ثانياً: الثناء على المنعم:

الثناء على المنعم – وهو الله عز وجل – بما أولاك من نعم وأسداك من معروف؛ ولهذا كان نبينا ﷺ يجعل سجوده في قيم الليل في الثناء على الله عز وجل:

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: " فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَلَمَسْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ سَاجِدٌ وَقَدَمَاهُ مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ؛ وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ؛ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ. "رواه مسلم.

وروي في الأثر: أن داود – عليه السلام – قال: يا رب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.

وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغة تثني عليك بما أوليت من حسن

لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنن

ثالثا: العمل بالجوارح:

والشكر لا يكون باللسان فقط وإنما بالقول والعمل؛ لأن المعنى الحقيقي للشكر أن أن تُستعمل النعمة فيما يحبه الله، وألا تُستعان بها على معصيته؛ ولهذا قال الله لآل داود ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]

فالله سبحانه أمر آل داوود بالعمل شكراً، لأن هناك فرقاً بين شكر القول وشكر العمل، فالحمد يكون باللسان، أما الشكر فيكون بالقلب واللسان والجوارح؛ ولذلك كان العمل بالطاعة من أعظم صور الشكر، لذلك قال: اعملوا، ولم يقل: قولوا شكراً، لأن الشاكرين بالعمل قلة، لذلك ختم الآية بقوله: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}

ومر عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- برجل في السوق فإذا بالرجل يدعو قائلا: (اللهم اجعلني من عبادك القليل.. اللهم اجعلني من عبادك القليل)

فقال له عمر: من أين أتيت بهذا الدعاء؟

فقال هذا الرجل: إن الله يقول في كتابه العزيز: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ [ص: 24] فأسأل الله أن يجعلني من هؤلاء القليل.

فقال عمر: كل الناس أفقه منك يا عمر.

شكر النعم من جنس النعمة ذاتها:

- فمَن رزقه الله علمًا فشكره بالإنفاق منه بأن يعلم غيره، ويفقه أهله وجيرانه.
- ومَن رزقه الله جاهًا، فشكره بأن يستعمله في تيسير الحاجات للآخرين، وقضاء مصالحهم.
- ومَن أفاض الله عليه إيمانًا راسخًا، ويقينًا ثابتًا، فشكره أن يفيض على الآخرين من إيمانه، وأن يسكب عليهم من يقينه؛ وذلك بأن يذكرهم بنعم الله وآلائه، وأن يحيي في قلوبهم الرجاء والخوف والخشية من الله، وأن يُثَبِّت في قلوبهم أن الآجال والأرزاق بيد الله، وأن الخلق لا يملكون له نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.
- ومن رزقه الله الذرية فإن شكرها يكون بأن يغرس في قلبها عقيدة التوحيد من الصغر، وأن ينشئها على طاعة الله- عزَّ وجلَّ- وأن يحصنها ويعيذها من الشيطان كما أعاذت امرأة عمران ابنتها حين قالت: **﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** [آل عمران: 36]
- وشكر المال يكون بالإنفاق منه في وجوه البر.
- وشكر القوة والصحة يكون بمساعدة الضعفاء، والعمل، والبناء، والبذل، والعطاء.
- وشكر الوظيفة يكون بالقيام بواجباتها وأداء مهامها، وكل نعمة من نعم الله تعالى علينا تستوجب شكرها.
- وكذلك شكر الله- عزَّ وجلَّ – على ما أنعم به علينا من جوارح، كاليدين والرجلين والعينين والأذنين وغيرها؛ أن نستخدمها في طاعة الله عز وجل.

جاء رجل لأبي حازم فقال له: ما شكر العينين؟

قال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيت بهما شرًّا سترته.

قال: فما شكر الأذنين؟

قال: إن سمعت خيرًا وعيته، وإن سمعت بهما شرًّا أخفيته.

قال: فما شكر اليدين؟

قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقًّا لله- عزَّ وجلَّ- هو فيهما.

قال فما شكر البطن؟

قال: أن يكون أسفله طعامًا، وأعلاه علمًا.

قال فما شكر الفرج؟

قال: كما قال الله- عزَّ وجلَّ-: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾
[المؤمنون: 5-7]

قال: فما شكر الرِّجْلَيْنِ؟

قال: إن رأيت حيًّا غبطته عملت بهما عمله، وإن رأيت ميتًا مقته كففتهما عن عمله، وأنت شاكر لله- عزَّ وجلَّ، فأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء، فأخذ بطرفه، ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر"

والمقصود بقوله: "إذا رأيتَ حيًّا غبطتَه استعملتَ بهما عملَه"
أي: إذا رأيتَ رجلًا صالحًا حيًّا، فأعجبك ما يقوم به من الطاعات والخير، وتمنيت أن تعمل مثل عمله دون أن تزول النعمة عنه، فإن شكر رجليك أن تسير بهما إلى مثل ما يسير إليه: يمشي إلى المسجد، فتمشي إلى المسجد، أو يزور المرضى ويصل الأرحام، فتفعل مثله، أو يطلب العلم ويحضر مجالس الخير، فتسعى بقدميك إلى ذلك، أو يمشي في قضاء حوائج الناس، فتقتدي به.

وقوله :وإن رأيتَ ميتًا مقتَّه كففتَهما عن عمله.

أي: إذا رأيتَ إنسانًا مات، وعرفت أنه كان يسلك طريقًا سيئًا من الفسق والظلم والمعاصي، فكرهت سيرته وطريقته، فإن شكر قدميك أن تمنعهما من السير في الطريق الذي كان يسير فيه.

فلا تمشِ بهما :إلى مجالس المعصية والفساد، أو إلى ظلم الناس وأذيتهم، أو إلى أماكن الفتن والمحرمات، أو إلى القطيعة أو الاعتداء أو نشر الشر.

وسائل تحقيق الشكر

أولاً: الدعاء:

وذلك بأن تكثر من الدعاء بأن يجعلك الله من الشاكرين؛ كما أوصى النبي ﷺ معاذا فقال:" يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ."(أحمد وأبو داود والنسائي)

وكان من دعاء النبي -ﷺ-: (رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا. . .) أخرجه الترمذي من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ-رضي الله عنه-، وصححه الألباني

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَنَّامٍ الْبَيَاضِيِّ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ فَلَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ. وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ." رواه أبوداود وحسنه الحافظ ابن حجر.

ثانيا: ملازمة تقوى الله والعمل بطاعته:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123] أي: فاتقوني؛ فإنه شكر نعمتي .

ولهذا كان صلى الله عليه يقوم الليل حتى تتورم قدماه شكراً لله تعالي؛ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: **(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ**

اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!) متفق عليه.

ثالثا: التفكر في نعم الله عليك:

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]

فانظر في نفسك كم نعمة تحملها؟!! وفي الكون كم نعمة أسداها الله لك؟ !!فالمؤمن إذا شاهد نعمة تذكر حق المولى عليه وأحدث ذلك في نفسه شكرا عظيما لمولاه!!

كما حصل لنبي الله سليمان عليه السلام لما سمع كلام النملة؛ فاستشعر عظيم نعمة الله عليه بسعة ملكه وتسخير الطير له ومعرفته منطقهم؛ فشكر الله في الحال وخضع قلبه لله!! **قال تعالى:** ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19]

كم تكون فاتورة نعمة التبول؟

رجل بلغ من العمر سبعين عاما، عانى من مشكلة عدم التبول لعدة أيام، وبعد ازدياد الألم زار طبيب وأقترح عليه أن يعمل عملية في المثانة، ووافق الرجل على الفور للتخلص من الألم الكبير الناتج عن احتباس البول...
وبعد نجاح العملية حضر الدكتور إلى المريض وأعطاه بعض الأدوية وكتب له الخروج مع فاتورة المستشفى، وعندما نظر الرجل للفاتورة غلبه البكاء.

فقال له الطبيب: إذا كانت الفاتورة باهظة السعر عليك فمن الممكن أن نعمل لك تخفيض يناسبك!!!
قال الرجل: ليس هذا ما يبكيني؛ ما يبكيني هو أن الله أعطاني نعمة التبول سبعين عام ولم يرسل لي فاتورة مقابل ذلك!

رابعا :المداومة على صلاة الضحى:

لأن المداومة على صلاة الضحى شكرٌ لنعمة الصحة والعافية.

فعن أبي ذر، عن النبي ﷺ أنه قال: "يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنْ الضُّحَى" [رواه مسلم].

خامسا: تذكر السؤال على النعم يوم القيامة:

وسيسأل العبد عن نعم الله: هل عرف قدرها، وشكرها، واستعملها في طاعته، واجتنب الاستعانة بها على معصيته؟ قال تعالى: {ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}. قال ابن كثير:" ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك. ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته."

ثمرات الشكر وفوائده

1- الشكر سببٌ لرضى الله عن عبده: قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رضي الله عنه-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: " إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا" أخرجه مسلم.

2-الشكر أمان من العذاب: قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 147] قال قتادة رحمه الله: "إن الله جل ثناؤه لا يعذِّب شاكرًا ولا مؤمنًا"

3- الشكر سببٌ للزيادة: قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]

وعَنْ عَلِيٍّ -رضي الله عنه-، أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ هَمْدَانَ: " إِنَّ النِّعْمَةَ مَوْصُولَةٌ بِالشُّكْرِ، وَالشُّكْرُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَزِيدِ، وَهُمَا مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ، وَلَنْ يَنْقَطِعَ الْمَزِيدُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَنْقَطِعَ الشُّكْرُ مِنَ الْعَبْدِ "أخرجه البيهقي في شعب الإيمان

4- الأجر الجزيل للشاكرين في الآخرة: قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]

الخلاصة:

1. نعم الله على الإنسان كثيرة ومتنوعة، ولا يستطيع العبد حصرها فضلًا عن أداء شكرها كاملًا.
2. الله هو المنعم الحقيقي، وما الأشخاص والأسباب إلا وسائل سخّرها الله لإيصال النعم.
3. من طبيعة الإنسان التقصير في الشكر، وقد يبلغ به ذلك إلى ظلم نفسه وجحود نعمة ربه.
4. الإيمان قائم على مقامي الصبر والشكر؛ فالمؤمن يصبر عند البلاء، ويشكر عند الرخاء، ويكون أمره كله خيرًا.
5. الشكر الحقيقي يقوم على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بالنعمة، وثناء اللسان على المنعم، واستعمال الجوارح في طاعته.
6. لا يكفي الشكر باللسان وحده، بل لا بد أن يظهر أثره في السلوك والعمل والاستقامة.
7. استعمال النعمة في معصية الله من أعظم صور كفرانها، أما استعمالها في الطاعة فهو من شكرها.
8. شكر كل نعمة يكون من جنسها؛ فشكر العلم تعليمه، وشكر المال إنفاقه في الخير، وشكر القوة إعانة الضعيف، وشكر الوظيفة إتقانها وأداء الأمانة فيها.

9. من شكر نعمة الذرية تربيتها على التوحيد والطاعة والأخلاق، وحمايتها من أسباب الفساد والانحراف.

10. من شكر الجوارح حفظ العين والأذن واليد والرجل وسائر الأعضاء عن الحرام، وتسخيرها في الطاعة والنفع.

11. الاقتداء بالصالحين والسير إلى المساجد ومجالس العلم وصلة الأرحام وقضاء حوائج الناس من شكر نعمة القدمين.

12. من أهم وسائل تحقيق الشكر: الدعاء، وتقوى الله، والطاعة، والتفكر في النعم، وملازمة الأذكار، والمحافظة على صلاة الضحى.

13. استحضار سؤال الله للعبد عن النعيم يوم القيامة يدفعه إلى حسن الانتفاع بالنعم وأداء حقوقها.

14. الاعتراف بالعجز عن أداء شكر الله كاملًا لون من ألوان الشكر؛ لأن التوفيق للشكر نفسه نعمة تحتاج إلى شكر.

15. الشكر سبب لرضا الله، والأمان من العذاب، وزيادة النعم، ونيل الجزاء العظيم في الآخرة.

****

الإنسان في القرآن

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]

6- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

هذه الآية دالة على عظيم تكريم الله لبني آدم؛ فقد أكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بنعم ظاهرة وباطنة، ويسّر لهم الركوب في البر والبحر، وسخّر لهم من أسباب الحمل والتنقل ما يحتاجون إليه، ورزقهم الطيبات من المآكل والمشارب والملابس والأزواج وغيرها، ولذلك كان تفضيل الإنسان على كثير من المخلوقات تفضيلًا ظاهرًا .

معنى الآية الكريمة

يقول تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) ولقد اختلف العلماء في بيان أَوْجُه تكريم الإنسان على أقوال منها:

1- تكريم آدم أبي البشر عليه السلام

كرم الله الإنسان، وشرّف أباه آدم تشريفًا عظيمًا، فخلقه بيده، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75] وأسجد له ملائكته، **قال تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 28-29] فسجد الملائكة لآدم بأمر الله سجود تحية وإكرام، لا سجود عبادة؛ ثم قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ **[البقرة: 31]** فكان من تكريمه العلم.

2- ومن أعظم ما خص الله به الإنسان العقل والتمييز والبيان:

كُرِّمَ بالعقل والنطق والبيان والكتابة والتفكير، والقدرة على التعلم واكتساب المعارف والصناعات، وعلى معرفة ما ينفعه واجتناب ما يضره؛ فيستطيع أن يستخدم ما حوله ويطوّعه لمصلحته، فغيره من المخلوقات قد تكون أقوى منه

في جانب معين؛ فالفرس أسرع منه، والجمل أقدر منه على حمل الأثقال، وبعض الحيوانات أقوى جسمًا، لكن الإنسان يستطيع بعقله أن يسخر هذه الحيوانات وأن يجعلها في خدمته، **قال سبحانه:** ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [الرحمن: 1-4] فبهذا العقل يميز، وبهذا اللسان يعبر، وبهذا البيان ينقل العلوم من جيل إلى جيل؛ فالإنسان يولد لا يعلم شيئًا، ثم يستطيع بعد سنوات أن يقرأ ويكتب، ويبني ويزرع، ويحسب، ويطبب، ويصنع، **كما قال تعالى:** ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: 78].

3- تسخير الكون له:

سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأعد لهم مقومات حياتهم قبل خلقهم، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب وسائر قوى الكون تمدهم بأسباب الحياة من غير أن يكون لهم سلطان على خلقها أو تسييرها؛ قال سبحانه: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ**﴾ [الجاثية: 13]

4- إنزال الوحي وإرسال الرسل

ومن تكريم الله للإنسان إرسال الرسل وإنزال الكتب، ليعرف منهج الله وصراطه المستقيم، ويعرف بدايته ونهايته ومصيره، **قال تعالى:** ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [الأنعام: 48]

5- خلقه في أحسن صورة

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، معتدل القامة، جميل الصورة، وفي وجهه للنظر عينان، وللسمع أذنان، وللبيان لسان وشفتان، ومنحه الله يدين يبطش بهما، ورجلين يمشي عليهما، ووهبه عقلا يفكر به.

وليس المرادُ من الصّورة الحَسنة جمال المنظر؛ بل المقصودُ تناسبُ أجزاءِ الإنسان بعضها مع بعض وتناسبُ مجموعِها مع الغاية التي خُلِق من أجلِها، فالأجهزةُ الفعّالةُ في جسم الإنسان فيها غايةُ التناسبِ والإنسجام وتفاعلِ بعضِها مع البعض الآخر

6- حفظ كرامة الإنسان حيًا وميتًا

حرم الإسلام الاعتداء على دمه وماله وعرضه إلا بحق، وجعل للإنسان حرمة بعد موته، فشرع غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، ولم يجعل جثته شيئًا يلقى كما تلقى الأشياء.

لكن هل كل الناس متساوون في الكرامة عند الله؟ هنا يجب أن نفرق بين كرامة عامة وكرامة خاصة.

فالكرامة العامة لجنس بني آدم: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾** المؤمن والكافر، الأبيض والأسود، العربي والعجمي؛ كلهم من بني آدم.

لكن هناك كرامة أخرى أعلى منها، وهي الكرامة عند الله، **قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** [الحجرات: 13] فليست الكرامة عند الله بجنس الإنسان، ولا باللون، ولا بالمال، ولا بالشهادة، ولا بالوظيفة، ولا بكثرة الأتباع، وإنما بالتقوى؛ فالأتقى هو الأكرم عند الله، وقد يكون الرجل لا يعرفه أهل الأرض، لكنه معروف في السماء.

وفي الحديث عن أبي هريرة (إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض) رواه مسلم

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: وحملناهم في البر على الدواب والرواحل والمراكب التي ألهمناهم صنعها واستعمالها، وحملناهم في البحر على السفن والفلك بعد أن سخرنا لهم الماء والرياح والسنن الكونية التي تمكنهم من الانتقال والتجارة

وطلب الرزق، مع أن الإنسان ضعيف أمام قوى البر والبحر، ولكن الله منحه العقل والاستعداد اللذين يمكّنانه من الانتفاع بها

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: ورزقناهم من الطيبات؛ من أنواع المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والصحة والحواس والقدرة على الحركة، ويسرنا لهم تنقية الطعام وطبخه وتركيبه وتناوله على أحسن هيئة، فما من طيب تتعلق به حاجتهم إلا وقد جعل الله لهم منه نصيبًا ويسّره لهم، غير أن طول الألفة بالنعم قد يجعل الإنسان يغفل عنها فلا يعرف قدرها إلا إذا فقدها.

ولم يعط الله الإنسان مجرد ما يحفظ حياته، بل وسّع عليه في الرزق، وجعل له ألوانًا من الطعام والشراب والثمرات والمنافع التي يستطيبها؛ فالإنسان لا يأكل لمجرد سد الجوع فقط، بل يعرف مذاقات متعددة، ويتخير من ألوان الرزق، وهذا كذلك من مظاهر التكريم.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وفضلناهم على كثير من مخلوقاتنا تفضيلًا عظيمًا بما جمعنا لهم من حسن الصورة، والعقل، والعلم، والبيان، والإرادة، والاختيار، والقدرة على التصرف والتدبير، وتسخير المخلوقات الأرضية، وتطوير أساليب حياتهم وحضارتهم.

إذن الآية تتحدث عن تكريم النوع الإنساني من حيث أصل خلقته واستعداده، لا عن استحقاق كل فرد للفضل عند الله مهما كان عمله؛ فإن كرامة التقوى والجزاء لا ينالها إلا المؤمن المطيع، وقد ينحط الإنسان بالكفر والمعصية حتى يكون كالأنعام، بل أضل سبيلًا، والمقصود تذكير الإنسان بعظيم نعمة الله عليه حتى يشكره، ويعرف قدر نفسه، ويستعمل عقله وجوارحه وما سُخّر له في طاعة خالقه وعمارة الأرض بالحق، ولا يقابل هذا التكريم بالكفر والغفلة والفساد.

من هو الأكرم عند الله؟

إذا قلنا إن الله كرّم الإنسان، فقد يسأل سائل:

هل معنى ذلك أن الإنسان أفضل من الجن؟

وهل هو أفضل من الملائكة؟

والجواب عن المسألتين كالتالي:

أولًا: الإنسان والجن

الإنس والجن جنسان مختلفان، وكلاهما مكلف، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] وفي الجن مؤمن وكافر، وصالح وطالح.

وقد قالوا عن أنفسهم: **﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: 11]** فنرى منهم المسلمين العاملين بالطاعة، ومنهم دون ذلك، فهم فرق مختلفة، كما يقع الاختلاف في الإنس، ولهذا لا يصح أن نقول: كل إنسان أفضل من كل جني.

فمحمد ﷺ أفضل الخلق جميعًا بلا إشكال، وكذلك سائر الأنبياء لهم الدرجات العليا عند الله، أما سائر الخلق من الجن والإنس فالكريم منهم عند الله التقي، والقرآن جمع الفريقين في الثواب والعقوبة والتكليف؛ بل قال في الضالين من الفريقين: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179]** وسبب وصفهم بأنهم أضل من الأنعام أنهم أوتوا التمييز ثم أعرضوا عن دلائل الحق.

فالميزان الحقيقي عند الله الإيمان والطاعة والقرب من الله.

ثانيًا: أيهما أفضل، صالحو البشر أم الملائكة؟

هذه مسألة قديمة اختلف فيها العلماء، على ثلاثة أقوال:

1- الملائكة أفضل؛ فالملائكة في الملأ الأعلى، مستغرقون في عبادة الله، **قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 20]**

2- الأنبياء وصالحو البشر أفضل من الملائكة؛ ومن أدلة من فضّل صالحي البشر: تكريم آدم، وتعليمه الأسماء، وأمر الملائكة بالسجود له، وما خص الله به الأنبياء والأولياء من الدرجات.

3- وتوقف طائفة، وقالوا: لا يوجد في المسألة نص قاطع يفصل جميع أفراد هذا الباب على وجه لا احتمال فيه.

ومن أجمل ما قيل في الجمع بين الأدلة: تفصيل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال بمعناه: إن الملائكة أفضل باعتبار البداية، وصالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية.

أما الإنسان المؤمن، فإنه يجاهد شهواته، ويجاهد شيطانه، ويجاهد نفسه، ويصبر على البلاء، ويعبد الله وهو بين دواعي المعصية؛ فإذا ثبت حتى لقي الله وبلغ منازل أهل الجنة، كان له من الكمال والكرامة ما ذكره الله.

ومع ذلك فالمسألة اجتهادية، فلا نجعلها من أصول الدين التي يضلل فيها المخالف .

أسباب الهوان عند الله

وإذا كان الله قد كرّم الإنسان وهداه إلى طريق العزة، فإن الإنسان قد يسلب نفسه آثار هذا التكريم المعنوي حين يختار الكفر والاستكبار والإعراض.

1- الكفر والشرك:

من أعظم أسباب الهوان أن يكرمك الله بالوجود والعقل والرزق ثم تجعل العبادة لغيره؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: 18] فالذين حق عليهم العذاب هم الكفار والمشركون الذين أعرضوا عن توحيد الله وعبادته، **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 6]

2- الاستكبار

أول من سقط من مقام القرب من الله بسبب الكبر إبليس عندما **قال:** ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12] **فكانت نتيجة "أنا خير منه":**

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 13]

فدخل إبليس الهوان من باب الكبر، ولذلك لا تغتر بنسب، ولا بمال، ولا بمنصب؛ فالكرامة ليست أن تكون فوق الناس، وإنما أن تكون عند الله من أهل التقوى.

3- المعصية والإصرار عليها

المعصية تُذل صاحبها؛ فقد يضحك بين الناس وقلبه ذليل، وقد يركب أفخم سيارة وهو أسير شهوة، وقد يملك الملايين وهو عبد لماله، وقد يعيش إنسان فقير في بيت متواضع وقلبه عزيز بالله.

فليست العزة فيما يراه الناس؛ إنما العزة في طاعة الله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10]

وعندما فتح المسلمون جزيرة قبرص بكى أبو الدرداء، فقيل له: تبكي في مثل هذا اليوم الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله؟!

فقال أبو الدرداء: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، إذ عصوا الله فصاروا إلى ما ترى"

نعم ما أهونهم على الله، لو أضاعوا أمره!!

وقال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد.

4- الإعراض عن ذكر الله

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124] والمعيشة الضنك معيشة كلها ضغوط وكآبة وضيق، والعقوبة الأخروية أن يحشر يوم القيامة أعمى، والنسيان هنا ليس نسيان القرآن كما يظن البعض، إنما النسيان هنا هو الترك، الترك أتته آيات الله- عز وجل- فأعرض عنها إعراض الترك، كالغافل عنها كالذي لا يبصرها.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من السعداء في الدنيا والآخرة، وأن يرزقنا الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وإن يعيذنا من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

الخلاصة:

1. تكريم الله لبني آدم تكريم عام يشمل جنس الإنسان؛ مؤمنهم وكافرهم، وعربيهم وأعجميهم، وأبيضهم وأسودهم.
2. بدأ تكريم الإنسان بتكريم أبيه آدم عليه السلام؛ فخلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه الأسماء، وأمر الملائكة بالسجود له سجود تحية وإكرام.
3. العقل والعلم والبيان من أعظم وجوه التكريم؛ فبها يتعلم الإنسان ويفكر ويكتب وينقل المعرفة ويقيم الحضارات.
4. فضّل الله الإنسان بحسن الخِلقة والصورة؛ فجعله معتدل القامة، ومكّنه من تناول الأشياء بيده والتصرف فيها.
5. سخّر الله للإنسان ما في السماوات والأرض من الشمس والقمر والماء والهواء والدواب وسائر أسباب الحياة.
6. إرسال الرسل وإنزال الكتب من أجلِّ صور التكريم؛ ليعرف الإنسان ربه وغاية خلقه والطريق الموصل إلى سعادته.
7. تيسير وسائل النقل من نعم الله العظيمة؛ فقد حمل الإنسان في البر والبحر، وألهمه صناعة المراكب والانتفاع بالنواميس الكونية.
8. رزق الله الإنسان من الطيبات؛ من الطعام والشراب واللباس والمسكن والزواج والصحة والحواس وسائر المنافع.
9. كثرة الألفة بالنعم قد تورث الغفلة عنها؛ فلا يعرف الإنسان قدر الصحة أو الحواس أو الأمن إلا عند فقدها.
10. لم يرزق الله الإنسان ما يحفظ حياته فقط، بل وسّع عليه في ألوان الأطعمة والأشربة والثمرات والمنافع التي يستطيبها.
11. فضّل الله بني آدم على كثير من خلقه بما جمع لهم من العقل والعلم والبيان والإرادة والاختيار والقدرة على التدبير.

12. التكريم الإنساني لا يعني تساوي الناس في المنزلة عند الله؛ فالكرامة الخاصة والرفعة الحقيقية تكون بالإيمان والتقوى.

13. ميزان التفاضل عند الله ليس الجنس ولا اللون ولا المال ولا المنصب، وإنما التقوى.

14. الإنس والجن مكلفون بعبادة الله، وفي كلٍّ منهما المؤمن والكافر والصالح والطالح؛ ولذلك يكون التفاضل بين أفرادهما بالإيمان والطاعة.

15. من أجمع الأقوال في مسألة تفضيل صالحي البشر على الملائكة أن الملائكة أفضل باعتبار البداية، وصالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية بعد مجاهدة النفس والشيطان والشهوات.

16. يجوز للإنسان أن يرتقي بالطاعة حتى يبلغ أعلى الدرجات، كما يمكن أن ينحط بالكفر والمعصية حتى يكون كالأنعام، بل أضل سبيلًا.

17. الشكر العملي هو مقتضى التكريم؛ وذلك باستعمال العقل والعلم والجوارح والنعم في طاعة الله وعمارة الأرض بالحق.

18. الشرك من أعظم أسباب الهوان؛ لأنه مقابلة لتكريم الله ورزقه بصرف العبادة لغيره.

19. الكبر سبب للسقوط والذل، كما وقع لإبليس حين اعترض على أمر الله وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

20. المعصية والإصرار عليها يورثان ذل القلب، ولو كان صاحبه غنيًّا أو ذا منصب، بينما تمنح الطاعة صاحبها عزة ولو كان فقيرًا.

21. الإعراض عن ذكر الله سبب لضيق الحياة وهوان الآخرة، أما الإيمان والذكر والطاعة فهي أسباب الطمأنينة والعزة.

22. الإسلام يحفظ كرامة الإنسان حيًّا وميتًا؛ فيصون دمه وماله وعرضه، ويشرع بعد موته غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه.

23. الغاية الكبرى من الآية أن يعرف الإنسان قدر نعمة الله عليه، وألا يقابل التكريم بالكفر والغفلة والفساد، بل بالشكر والتواضع والاستقامة.

الإنسان في القرآن

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾

[سورة الإسراء:100]

7- ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورا﴾

[سورة الإسراء:100]

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: 100]

معنى الآية الكريمة

قَوْلُهُ تَعَالَى :﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ المقصود بخزائن رحمته: أرزاقه التي وزعها على عباده، ونعمه التي أنعم بها عليهم، فالله جل جلاله هو الغني الذي له الغنى التام المطلق، الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، فجميع الخلق مُفتَقِرون إليه، في طلب مصالحهم، ودفْع مضارِّهم، في أمور دينهم ودنياهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21]، **وقال تعالى:** ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 96]

والله سبحانه من واسع رزقه تكفل برزق جميع الخلق مهما كانوا وأينما كانوا، مسلمين وكافرين، إنسًا وجنا، طيرًا وحيوانا، **قال تعالى:** ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 6]

وكلمة (الدابة) جاءت نكرة لتفيد الشمول، لتشمل هذه الكلمة كل شيء يدب على وجه الأرض، **و(مِن)** تفيد استغراق أفراد النوع.

وفي الصحيحين: (يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه)

يَدُ اللهِ مَلأى :كثيرة الامتِلاء بالخَير

لا تَغِيضُها: لا تَنقُصُها نفَقةٌ .

سحاء الليل والنهار: كثيرة العطاء في الليل وفي النهار .

أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض :يعني أخبروني ماذا أنفق منذ خلق السماوات والأرض، ولا يستطيع أحد إحصاء ما أنفقه الله سبحانه.

فإنه لم يغض[11] **ما في يده** :يعني لم ينقص ومنه قوله تعالى: **(وغيض الماء)** يعني نقص.

وجاء في حديث أبي ذر عن النبي ﷺ عن ربه قال: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر) أخرجه مسلم

إذا غُمس المخيط في البحر ثم نُزع ماذا ينقص من البحر؟ لا شيء يعني لا ينقص من ذلك شيئاً.

قال ابن القيم: "فالله سبحانه غني حميد كريم رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه سبحانه ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانا وجودا محضا؛ فإنه رحيم لذاته محسن لذاته جواد لذاته كريم لذاته؛ كما أنه غني لذاته قادر لذاته حي لذاته؛ فإحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته لا يكون إلا كذلك كما أن قدرته وغناه من لوازم ذاته فلا يكون إلا كذلك وأما العباد فلا يتصور أن يحسنوا إلا لحظوظهم" [12]

قوله: (إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ) إذا لبخلتم وأمسكتم في توزيعها عليهم، مخافة أن يصيبكم الفقر لو أنكم توسعتم في العطاء، مع أن خزائن الله لا تنفد أبدا، ولكن لأن البخل من طبيعتكم فعلتم ذلك.

والْمَعْنَى لَوْ مَلَكَ أَحَدُ الْمَخْلُوقِينَ خَزَائِنَ اللَّهِ لَمَا جَادَ بِهَا كَجُودِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَمْرَيْنِ:

---

(11) فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ بفتح الياء، وكسر الغين، وسكون الضاد :يَغِضْ، أي: لم ينقص ما في يده.

(12) طريق الهجرتين ص 105

الأول: أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُمْسِكَ مِنْهَا لِنَفَقَتِهِ ونفقة أهله وعياله، ويدخر منها لمستقبله.

الثَّانِي: أَنَّهُ يَخَافُ الْفَقْرَ بسبب نقص المال وَيَخْشَى الْعَدَمَ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَعَالَى فِي جُودِهِ عَنْ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ.

قوله: (وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً) قتورا من التقتير بمعنى البخل، والقتور هو الذي يبخل بالنفقة حتى على نفسه فضلا عن بذل المال لغيره، وهو خُلُق مذموم، وتشتد شناعته حين يضيّق الإنسان به حتى على نفسه، فقد يقبل أن يُضَيّق الإنسانُ على الغير، أما أنْ يُضيق على نفسه فهذا منتهى ما يمكن تصوّره؛ لذلك يقول الشاعر في التندُّر على هؤلاء:

يُقتِّر عِيسَى عَلَى نَفْسِه * وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِد**

فَلَوْ يستطيعُ لتَقتِيرِه * تنفَّسَ مِنْ مَنْخرٍ وَاحِدِ**

وبعد بيان المعنى الإجمالي للآية، يحسن الوقوف على حقيقة البخل وأسبابه وسبل علاجه:

تعريف البخل:

البخل هو: منع الإنسان ما يجب عليه أو يُستحب له بذله من مالٍ أو نفع، مع قدرته على ذلك؛ حرصًا على ما في يده وخوفًا من نقصانه.

ومن صوره:

- الامتناع عن الحقوق الواجبة، كالزكاة والنفقة على الزوجة والأولاد، وهذا بخل محرّم.
- ترك الإحسان والصدقة مع القدرة، وهذا بخل مذموم، ولا يكون محرّمًا إذا لم تعلق به حق واجب.
- التضييق على النفس والأهل في الحاجات المشروعة مع سعة المال.

والبخل غير الاقتصاد؛ فالاقتصاد إنفاق معتدل بلا إسراف ولا تقتير، أما البخل فهو منع الحق أو التضييق المذموم.

ما الفرق بين البخل والشح؟ للعلماء عدة أقوال:

1. البخيل هو من يبخل بما في اليد من مال، فيمتنع أن ينفق على غيره، كما قَالَ تَعَالَى :﴿**أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا**﴾ [النساء: 53] أَيْ: لَوْ أَنَّ لَهُمْ نَصِيبًا فِي مُلْكِ اللَّهِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا شَيْئًا، وَلَا مِقْدَارَ نَقِيرٍ.

2. البخل: الامتناع من إخراج ما حصل عندك، أما الشحُّ: فهو الحرص على تحصيل ما ليس عندك.

3. البخل هو نفس المنع، والشحُّ الحالة النفسية التي تقتضي ذلك المنع.

4. **الشحَّ هو البخل مع زيادة الحرص، وهو الصحيح لحديث جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال: (اتَّقوا الظلم؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتَّقوا الشحَّ؛ فإنَّ الشحَّ أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم) رواه مسلم.**

ويؤيد هذا المعنى حديث **أبي هريرة عن النبي ﷺ (لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري رجل مسلم أبدًا، ولا يجتمع شحٌّ وإيمان في قلب رجل مسلم أبدًا) رواه النسائي**

فالإنسان يبخل على الناس ويُقتِّر علَى نفسه؛ لأنه جُبِل علَى البخل مخافة الفقر، وإنْ أُوتِي خزائن السماوات والأرض.

5. **ويرى ابن القيم أنَّ** (الفرق بين الشحّ والبخل: أنَّ الشحَّ هو: شدة الحرص على الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه، **والبخل** منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه، وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله، فالبخل ثمرة الشحّ، والشحُّ يدعو إلى البخل، والشحُّ كامن في النفس، فمن بخل فقد أطاع شحَّه، ومن لم يبخل فقد عصى شحَّه ووقي شرَّه، وذلك هو المفلح ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: 9][13]

---

[13] الوابل الصيب ص 33

فائدة لغوية:

ضد التقتير: الإسراف، قال تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]

وضد البخل: الكرم، وضد الشح: الإيثار، **قال تعالى في شأن الأنصار**: **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [الحشر: 9]

إذن المعني : لو أنكم تملكون التصرف في خزائن رزق الله لأمسكتم عن الإنفاقِ منها ولَبَخِلْتُمْ بها فلم تُعطوا أَحدًا شيئًا مخافة نفادها، مع أَنها لا تنفَد ولا تفرغ أبدًا؛ ولكن في النفس البشرية استعداد للشح والخوف من الفقر، إلا من زكاه الله بالإيمان واليقين والمجاهدة؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَصِفُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ، إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَهَدَاهُ؛ فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَزَعَ وَالْهَلَعَ صِفَةٌ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :**﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾** [المعارج: 19-21]

وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ، وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى كَرَمِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ.

أسباب مرض البخل

1- حب الدنيا ببريقها وزخارفها، وزينتها:

وهذا من الأسباب المؤدية إلى الشُّح، حيث يتوهم من ابتلاه الله بحب الدنيا أنه إن أعطى فسيخلو جيبه، وستضيع صحته وعافيته وسيريق ماء وجهه، وتذهب مكانته ومنزلته بين الناس، ويبدد أوقاته، ويعرض نفسه لما لا تحمد عقباه من الأذى بكل صنوفه وأشكاله المادية والمعنوية، وخير له أن يمسك بره ومعروفه عن الناس كي تدوم له دنياه، ناسيا أو متناسيا أن الله يخلف على عبده كما قال: **﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ**

الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39] ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجلها ذم الله – عز وجل – حب الدنيا، والمحبين لها؛ إذ يقول الله – سبحانه -: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: 20-21]

2- إهمال النفس من المجاهدة:

وقد يكون إهمال النفس من المجاهدة من بين الأسباب التي توقع في الشُّح، ذلك أن المرء مجبول بفطرته على الشُّح، كما قال – سبحانه -: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 6-8] فقد فسر العلماء الخير هنا بالمال، أو بالدنيا.

فالإنسان مجبول بفطرته على الشُّح – كما رأينا من هذه النصوص – وقد يستسلم لهذا الذي فطر عليه، ولا يجاهد نفسه، وتكون العاقبة تمكن هذا الشُّح من نفسه بصورة يصعب معها العلاج.

3- عدم اليقين بما عند الله:

وقد يكون عدم اليقين بما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة هو الباعث على البخل والشُّح، ذلك أن من لم يصدق يقينًا لا يخالطه شك بأن الله يخلف على العبد أكثر مما يعطي هذا العبد، بل هو المانح ابتداء من غير حول من الخلق، ولا قوة ولا قدرة لهم من أنفسهم. فمن لم يوقن بذلك بخل وأصابه الشح

وقد لفت رب العزة أنظارنا إلى هذا السبب حين قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: 8-10] أي بخل بماله الذي لا يبقى، أو بخل بحق الله تعالى.

4- الحقد:

ذلك أن المرء إذا كان حاقدا على غيره فإنه سيسعى جاهدا ألا ينفعه بشيء أبدا، وهذا أمر ظاهر، وقد يُستأنس له بما ذكره الله عن سلامة صدور الأنصار، وهو يتحدث عن موقف الأنصار من المهاجرين فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ

قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] فقد بين – سبحانه – في هذه الآية أن الذي حمل هؤلاء الأنصار على التضحية التي وصلت إلى حد الإيثار، إنما هو الإيمان النابع من سلامة الصدر من الأحقاد والذي أثمر المحبة والمودة والموالاة.

علاج البخل

1- الدعاء واللجوء إلى الله:

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من البخل إذ يقول: (**اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل والعجز والكسل**) فاجعله من دعائك.

2- اليقين بأنه ما تنفق من شيء إلا وهو يخلفه سبحانه:

النظر إلى النعم التي أفاض الله علينا على أنها ليست ملكاً لنا حتى نمنعها عن عباده، وإنما هي ملك لله، ونحن أمناء أو خزنة فقط على هذه النعم، ومن واجب الأمين أو الخازن أن يتصدق وفق مراد صاحب النعمة، وقد دعا صاحب النعمة إلى إنفاقها على عباده، وفي مرضاته، مع الوعد الحق بأنه سيخلف أضعافا مضاعفة، إذ يقول – سبحانه -: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39] وقال: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: 7]

3- مجاهدة النفس، وأخذها بالعزيمة، وحملها حملا على الكرم والعطاء:

ويحسن أن يأخذها صاحبها بالتدريج مع الترغيب تارة، والترهيب أخرى، ويصبر على ذلك زمانا، فإن هذه المجاهدة إن كانت صادقة توصل بسرعة إلى المراد، وصدق الله الذي يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

وكما قال الشاعر:

النفس تجزع إن تكون فقيرة * والفقر خيراً من غنى يطغيها**

وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت * فجميع ما في الأرض لا يكفيها**

وفي الحديث عن يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، أَنَّ أَبَا الْخَيْرِ، حَدَّثَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ قَالَ: يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ)

قَالَ يَزِيدُ: " وَكَانَ أَبُو الْخَيْرِ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ إِلَّا تَصَدَّقَ فِيهِ بِشَيْءٍ، وَلَوْ كَعْكَةً، أَوْ بَصَلَةً أَوْ كَذَا "رواه الإمام أحمد وصححه محققو المسند.

(فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ) والصدقة قد تكون ظلًا، فإن الله سبحانه وتعالى قادر على ذلك، فهذه الصدقة، وإن كانت عملا مضى، وانقضى؛ لكن المتصدَّق به يؤتى به يوم القيامة بصفة شيء محسوس، وفي هذا الحديث دليل على فضل الصدقة، وعلى أنها تكون يوم القيامة ظلا لصاحبها.

4- تطهير الصدر من الأحقاد:

فإن الصدر إذا طهر من الأحقاد سهل على صاحبه أن يتحرر من الشُّح، وربما تجاوز ذلك إلى المواساة، بل الإيثار، على نحو ما جاء في كتاب الله عن الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]

5- اليقين التام بما عند الله من الأجر والمثوبة:

قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: 60] وقال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 96]

وخلاصة الأمر: أن علاج البخل يقوم على معرفة سعة فضل الله، واليقين بوعده، ومجاهدة النفس، وتعويدها الإنفاق، وسلامة الصدر للخلق.

الخلاصة:

1. الله سبحانه غنيٌّ غنًى مطلقًا، وبيده خزائن السماوات والأرض والدنيا والآخرة.
2. جميع الخلق مفتقرون إلى الله في تحصيل مصالحهم ودفع مضارهم، في أمور الدين والدنيا.
3. تكفَّل الله بأرزاق جميع المخلوقات، وأنزلها بحكمة وقدر معلوم.
4. خزائن الله لا تنفد، وكثرة عطائه وإنفاقه لا تنقص شيئًا مما عنده.
5. لو امتلك الإنسان خزائن الرزق التي لا تنفد لأمسك منها؛ خوفًا من الفقر والنفاد، وهذا يدل على شدة ما في طبعه من البخل.
6. وصف الإنسان بأنه «قتور» يعني أنه شديد الإمساك، وقد يضيّق حتى على نفسه فضلًا عن غيره.
7. الصفات المذمومة المركوزة في طبع الإنسان، كالبخل والهلع والجزع، يمكن التخلص منها بتوفيق الله ومجاهدة النفس.
8. البخل هو منع المال بعد حصوله، أما الشح فهو شدة الحرص عليه قبل حصوله وبعده، فهو أعم وأشد من البخل.
9. الشح من أخطر أمراض القلوب؛ لأنه قد يحمل صاحبه على الظلم، وسفك الدماء، واستحلال المحرمات.
10. الفلاح الحقيقي يكون بوقاية النفس من الشح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.
11. المنهج الشرعي في الإنفاق هو الاعتدال؛ فلا إسراف ولا تقتير، بل إنفاق بالمعروف والتوازن.
12. أعلى مراتب الكرم الإيثار، وهو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس، كما فعل الأنصار مع المهاجرين.

13. من أبرز أسباب البخل: حب الدنيا، والخوف من الفقر، وإهمال مجاهدة النفس، وضعف اليقين بوعد الله، والحقد على الآخرين.

14. المال الذي في يد الإنسان ملك لله، والإنسان مستخلف وأمين عليه، فعليه أن ينفقه فيما يرضي الله.

15. الإنفاق لا يضيّع المال؛ فالله وعد بالخَلَف، وما عند العبد ينفد وما عند الله باقٍ.

16. علاج البخل يبدأ وبتعويد النفس على البذل تدريجيًا، ولو بالصدقة القليلة المستمرة.

17. الصدقة من أسباب النجاة يوم القيامة؛ فالإنسان يكون في ظل صدقته حتى يُقضى بين الناس.

18. تطهير القلب من الحقد يفتح باب المواساة والكرم، وقد يرفع صاحبه إلى منزلة الإيثار.

19. استحضار ثواب الآخرة وأن ما عند الله خير وأبقى يقوّي السخاء، ويضعف التعلق بالمال.

20. الغنى الحقيقي ليس بكثرة المال، وإنما بغنى النفس والقناعة والكفاف.

****

الإنسان في القرآن

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾

[سورة الكهف: 54]

8- ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾

[سورة الكهف: 54]

قال تعالى :﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54]

معني الآية الكريمة

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أيّ بيَّنا ونوَّعنا، أيْ تارةً بالأمر، وتارةً بالنهي، وتارةً بالقصة، وتارةً بالمَثَل، وتارةً بالتحذير، وتارةً بالتبشير، وتنوع الأساليب من خصائص القرآن؛ لأنه كِتاب هدايةٍ ورشد.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ **أي:** ومع هذا البيان وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

والجدال يقصد به: مراجعة الكلام ومقابلة الحجة بالحجة لإثبات قول أو رد قول، وهو محمود أو مذموم بحسب موضوعه وقصده وطريقته ومآله.

التفريق بين الجدال وغيره:

- الحوار :تبادل الكلام بقصد الفهم أو الوصول إلى نتيجة .
- المناظرة :مناقشة علمية مرتبة لإظهار الصواب .
- الجدال :مقابلة الحجة بالحجة، وقد يكون بحق أو بباطل .
- المراء :مجادلة يغلب عليها الانتصار للنفس والاعتراض وإظهار التفوق .
- الخصومة :نزاع قد يصحبه تشدد وعداوة.

وعن علي بن أبي طالب أنَّ رسول الله -ﷺ- طرقه وفاطمة بنت رسول الله -ﷺ- ليلة، فقال: "ألا تصليان"، فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن

يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إليّ شيئاً ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه ويقول: "وكان الإنسان أكثر شيء جدلا" أخرجه البخاري ومسلم.

الإنسان وكثرة الجدل:

الله تعالى جعل الإنسان **خليفة في الأرض**؛ أي جعله مسؤولًا عن إصلاحها وعمارتها، وهذه العمارة لا تقتصر على البناء والزراعة والصناعة فقط، بل تشمل أيضًا إقامة العدل، ونشر الخير، وحفظ الحقوق، والدعوة إلى الحق، ومحاربة الظلم والباطل، ولكي يستطيع الإنسان أداء هذه المهمة، أعطاه الله قدرات كثيرة، مثل : **العقل، والبيان، والفهم، والإرادة، والقدرة على التعلم والتواصل**، وبالعقل والفطرة، وبما أنزله الله من الوحي، يستطيع الإنسان أن يعرف الحق ويهتدي إليه، وأن يعبّر عن رأيه، وأن يدافع عن الحق، وأن يتعاون مع غيره.

ثم إن الإنسان بطبيعته **اجتماعي**، لا يستطيع أن يعيش وحده منعزلًا عن الناس؛ فهو يحتاج إلى الأسرة، والمجتمع، والعمل، والتعاون، وتبادل المنافع؛ وبما أنه يعيش مع غيره، فلابد أن تحصل بين الناس آراء مختلفة، ومصالح متعددة، ومواقف تحتاج إلى نقاش وبيان.

من هنا يأتي **الجدال** بمعناه الصحيح، لا بمعنى الخصام والعناد، بل بمعنى الحوار والمناقشة لإظهار الحق؛ فالجدال إذا كان بالحق وبالأدب يكون وسيلة نافعة لتحقيق مقاصد عظيمة، منها:

استيفاء الحقوق :أي أن الإنسان قد يحتاج إلى أن يناقش ويبيّن حجته حتى يحصل على حقه.

دفع المظالم :أي الدفاع عن المظلوم ورد الظلم عنه بالحجة والبيان.

إعلاء الحق :أي توضيح الحق ونصرته حتى يظهر للناس.

دحض الباطل :أي كشف فساد الكلام الباطل ورد الشبهات بالحجة.

أنواع الجدال

أولا / الجدل المحمود:

وهو الذي يكون الغرض منه تقرير الحقِّ، وإظهاره بإقامة الأدلة والبراهين على صدقه، وقد جاءت نصوص تأمر بهذا النوع من الجدال، وقد أمر الله نبيه ﷺ بهذا

الجدال **في قوله تعالى:** ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]

وهو الذي يكون وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله وائتلاف قلوب العباد وترغيبهم في الخير وفضائله وتنفيرهم من الشر وغوائله، والأمر بالمعروف بمعروف والنهى عن المنكر بلا منكر، والحض على فعل الواجبات واجتناب المنهيات.

ويشترط فيه:

1- إخلاص النية وطلب الحق، لا الانتصار للنفس.

2- صحة موضوع النقاش، وألا يكون من العبث أو المحرمات.

3- العدل في نقل قول المخالف.

4- أن يكون موضوعه ذا قيمة وأن يبتغى من طرحه للحوار جدوى وفائدة عامة كدفع ضرر شديد أو استجلاب خير وفير.

5- أن يرجى من المجادل قبول الحق وعدم العناد واتباع الهوى.

6- اجتناب السخرية والتجريح.

7- أن يكون الجدال بالتي هي أحسن من الرفق ولين الجانب وعدم التعالي والغرور، وإلا كان مذموماً لأنه سيؤول إلى مفاسد عظيمة وأضرار بالغة.

8- أن يكون عن علم وبصيرة بموضوع الجدال وإلا كان ممقوتاً.

9- قبول الحق إذا ظهر.

ثانيا/ الجدل المذموم:

الجدال يكون مذموما بأحد الأسباب التالية:

- تقرير الباطل بعد ظهور الحقِّ، طلبا للشهرة أو المال والجاه.
- الجدل بغير علم أو الجدال في أمر لا ثمرة له .

- التعصب .
- إضاعة الوقت .
- استعمال السب والسخرية .

وقد جاءت نصوص كثيرة وآثار حذَّرت من هذا النوع من الجدال ونهت عنه، ومن هذه النصوص:

1- **قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: 3]**

2- **وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: 8]** وهذا النوع من المجادلين يغلب عليهم التعصب الأعمى، ويسيطر عليهم الغضب؛ مما يفضي في النهاية إلى المنازعة والمخاصمة وربما أدى الى أسوأ من ذلك.

3- وبين سبحانه أن أقبح صور الجدال والمراء الجدال عن الباطل، **قال -تعالى-: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: 107-109]**

4- **وقال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: 197] عن ابن مسعود في قوله: (وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ) قال: "أن تماري صاحبك حتى تغضبه"**

وعن ابن عباس قال: "الجدال: المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك، فنهى الله عن ذلك".

5- **وقد رغب النبى ﷺ في ترك الجدال من هذا النوع، فعن أبي أُمَامَةَ -رضيَ اللهُ عنهُ- قال: قال رسولَ اللهِ ﷺ: (أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنَّةِ لمَن تَرَكَ المِراءَ وإنْ كان مُحِقًّا، وببيتٍ في وسطِ الجنَّةِ لمَنْ تركَ الكذبَ وإنْ كان مازحًا، وببيتٍ في أعلى الجنَّةِ لمَن حَسُنَ خُلُقُه).** رواه أبو داوود وحسَّنَهُ الألباني.

وقوله: (أَنَا زَعِيم): يعني أنا ضامنٌ وكفيلٌ وملتزم بأنَّ مَنْ فعل كذا فله كذا.

و**(البيتُ)** هُنا هو القَصْرُ في الجَنَّة.

(رَبَضُ الْجَنَّة) هو ما حولها، فالرَّبَضُ هُنا حَوالِي الجنةِ وأطرَافُهَا، لا في وَسَطِها.

6- **ويقول رسول الله ﷺ (ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدىً كانُوا عليهِ إلا أُوتُوا الجدلَ) ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 58]**

- **وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل.**
- **وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل**
- **كان أبو قلابة يقول: لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم؟ فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم.**

ويشيع هذا النوع بين الذين لم يحصّلوا قدرا كافيا من العلم والثقافة؛ فما أن يطرح أحدهم موضوعاً ما إلا ويسارع المحيطون بالإدلاء بآرائهم وطرح أفكارهم؛ وبنفس السرعة يتحول الحاضرون إلى فريقين مؤيد ومعارض، ويسير الجدال في عدة مراحل من السيء إلى الأسوأ، ويحاول كل طرف أن يثبت تفوقه، وأن رأيه صواب لا يحتمل الخطأ، وأن رأى الطرف الآخر خطأ لا يحتمل الصواب.

وسائل التواصل الاجتماعي:

أسهم سوء استعمال مواقع التواصل في تضخيم القضايا الهامشية، وفتح أبواب القول بغير علم، مع ما فيها أيضًا من فرص نافعة لنشر العلم والخير، لكن فوضى التوجيه ممن ليس عندهم علم شرعي أدعياء العلم صيّرت من اللاشيءِ شيئاً،

وجرأت السفهاء على العقلاء، وأصبح لكل شخص من هؤلاء منبرا يتحدث منه، وهذه المعارك الكلامية، والتراشقات اللفظية، أغلبها مراءٍ يُسْتخرجُ بها الغضب، وتُترجمُ بسيء العبارات، وتنتهي تلك المنازلات بوحشة في النفوس، وتفرقٍ في القلوب، وفرحةٍ للشيطان؛ فيتحقق بذلك مقصد من مقاصد الشيطان، وهو التحريش بين الناس وإفساد ذات بينهم.

الخلاف السائغ لا يفسد أخوة الإيمان:

تناقش الإمام الشافعي- رحمه الله - مع تلميذه يونس بن عبد الأعلى في مسألة فاختلفا، وانتهى الحوار، ولم يتفقا، قال: فأمسك الشافعي بيدي وقال: ما علينا لو اختلفنا في مسألة ولم تختلف قلوبنا.

ما المشكلة لو اختلفنا في مسألة ولم تختلف قلوبنا؟ نحن عندنا تختلف قلوبنا وتتقطع روابط الأخوة بيننا، ونقيم الدنيا ولا نقعدها، ونكيد لمن خالفنا ونلتمس إيذاءه، ونتفنن كيف نؤذيه، وكيف ننشر أسراره ونهتك أستاره، ونفضحه ونشهر به أمام الناس، ما السبب يا أخي؟ لقد اختلف معي !!!

فنحن كمسلمين تختلف عقولنا لكن لا تختلف قلوبنا نختلف في كل شيء نتصوره وندركه ونعرفه، أي نعم عندنا اختلاف بحق، واختلاف بباطل لكن علاجه الحوار، ومبدأ من وافقني فهو قديس ومن خالفني فهو إبليس!!! هذا مبدأ سقيم، لأن قائله لم يعلم أن الأنبياء الكرام جميعا تعاملوا مع المخالفين لهم بالحوار، الحوار أن يسمع بعضنا بعضا أن يوضح كل واحد منا موقفه من الآخر، فإذا وضحت الرؤية صح التصور، وصح الحكم.

وقد حدث أن غلامًا من المهاجرين كسع رجلًا من الأنصار، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فقال النبي ﷺ: (ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة.)

رائحة العصبية واختلاف القلوب واستدعاء العصبيات أنا مهاجري وأنت أنصاري هذه نتن يعني من أخلاق الجاهلية لا ينبغي للمسلمين أن يتصفوا بها، **قال تعالى:**

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103]

إذن نختلف لكن لا تختلف قلوبنا، نتحاور ولا نتعادى ولا نتخاصم أيا كان من يخالفنا نحاورهم ونكلمهم، والله تعالى قال لمن هو خير منا: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [البقرة: 272] أي: إن كنت على الحق تبينه لكن ليس بمستطاعك أن تلزم الناس بما تعتقد أو بما تتصور ليس لك ولاية على أن يتقبل الناس دينك، أو فكرتك، أو رأيك، أو تصورك وليس هناك إكراه ﴿**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**﴾ [الغاشية: 22]

الخلاصة:

1. كثرة الجدل من طبائع الإنسان، ولا ينجو من آثاره المذمومة إلا من هداه الله وأخلص في طلب الحق.
2. نعمة العقل والبيان تمكّن الإنسان من معرفة الحق، والتعبير عنه، والدفاع عن الحقوق، ورد الظلم والباطل.
3. اختلاف الآراء أمر طبيعي تقتضيه الحياة الاجتماعية، وليس كل اختلاف سببًا للعداوة والخصومة.
4. الجدل نوعان: محمود يقصد إظهار الحق، ومذموم يقصد الانتصار للنفس أو تقرير الباطل.
5. الجدال المحمود وسيلة من وسائل الدعوة، والأمر بالمعروف، ورد الشبهات، وإقامة الحجة.
6. يكون الجدال محمودًا إذا كان في مسألة نافعة، وعن علم وبصيرة، وبالحكمة والرفق، مع رجاء قبول الطرف الآخر للحق.
7. لا يجوز الخوض في المسائل بغير علم؛ لأن الكلام في دين الله بلا بصيرة يوقع في الخطأ والضلال.
8. الجدال بالتي هي أحسن يقتضي حسن القول، ولين الجانب، واحترام المخالف، واجتناب التعالي والسخرية والتجريح.

9. الجدل المذموم هو الذي يراد به المغالبة والشهرة والجاه، أو الدفاع عن الباطل بعد ظهور الحق.

10. من أقبح صور الجدل الدفاع عن الخائن أو الظالم مع العلم بخيانته وظلمه.

11. التعصب والغضب واتباع الهوى تحوّل الحوار النافع إلى خصومة ومنازعة وتباغض.

12. ينبغي الحذر من مجادلة أهل الأهواء لمن لا يملك علمًا راسخًا؛ حتى لا تلتبس عليه الشبهات.

13. ليس المقصود من الحوار أن يثبت الإنسان تفوقه، بل أن يتعاون الطرفان على الوصول إلى الحق.

14. من علامات الجدل المذموم أن يرى المرء رأيه صوابًا لا يحتمل الخطأ، ورأي مخالفه خطأً لا يحتمل الصواب.

15. ترك المراء فضيلة عظيمة، حتى لو كان الإنسان محقًّا، إذا صار النقاش عقيمًا أو أدى إلى الغضب والعداوة.

16. الاختلاف المقبول لا ينبغي أن يتحول إلى اختلاف في القلوب أو قطيعة في العلاقات.

17. المخالف في الرأي ليس بالضرورة عدوًّا أو فاسقًا؛ فلا يصح تقديس الموافق وشيطنة المخالف.

18. علاج الاختلاف يكون بالحوار الهادئ، والاستماع المتبادل، وفهم كلام المخالف قبل الحكم عليه.

19. لا يجوز أن يؤدي الخلاف إلى التشهير بالمخالف، أو إفشاء أسراره، أو هتك ستره، أو إيذائه.

20. العصبية للأشخاص أو الجماعات أو الأحزاب من أخلاق الجاهلية، وتؤدي إلى تفريق المسلمين وإفساد قلوبهم.

21. المسلم مأمور ببيان الحق بالحكمة، وليس مكلفًا بإجبار الناس على قبول رأيه؛ فالهداية بيد الله تعالى.

الإنسان في القرآن

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

[الأنبياء:37]

9- (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) [الأنبياء:37]

خلقَ الله الإنسانَ، وفطَرَه على بعض الطباع التي لو بقِيَت فيه بدُون إصلاحٍ أو تهذيبٍ لخسِرَ خُسرانًا مُبينًا؛ كصِفةِ الجهلِ، والظُّلم، والجُحُود، وحُبِّ المال، والهلَع، والجَزَع، ومن هذه الصفاتِ المذمومةِ التي جاءتْ الشريعةُ بالنهيِ عنها:

صفةَ العجلةِ في الأمور وعدمَ التروي.

وقد وردت هذه الصفة في موضعين من القرآن:

الأول: فى قوله تعالى: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) [الأنبياء:37]

والثانى: فى قوله تعالى: (وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا) [الإسراء:11].

ففي هاتين الآيتين وَصَفَ اللهُ الإنسانَ بأنّ فيهِ عجلةً في أمورهِ وتسرُّعًا في أحوالهِ، وما كان ذلك إلا لقصورٍ في علمهِ وقلةِ إدراكهِ في عواقبِ الأمورِ، وهذا فيه تنبيهٌ للإنسانِ بأنْ يتحلى بالصبرِ والأناةِ، ويكبحَ جماحَ النفسِ المائلةِ إلى العجلةِ في الأحوالِ كلِّها.

ما تعريف العجلة:

العجلة: هي السرعة في الشيء، أو طلب الشيء قبل أوانه، والاعتدال: طلب الشيء في أوانه، فمن تعجَّل الشيء قبل أوانه يوصَف بأنه عجول، ومن تركه إلى ما بعد فوات الأوان يوصف بالإهمال والتقصير، ومن طلبه في وقته يوصف بالحكمة.

ما الحكمة من خلق الإنسان عجولاً؟

خلق الإنسان عجولاً ليجاهد نفسه ويرتقي بها ،وهذه العَجَلَةَ تمثِّل في الإنسان محركاً يحركه نحو هدفٍ ما ، وإلا لبقي مكانه ساكناً ، لذلك رُكِّبَ في الإنسان ما وصفه القرآن بأن الإنسان خلق من عَجَل، أي خلق في الإنسان دوافع قوية تدفعه إلى أهدافه، هذه القوة المحركة تحتاج إلى ترشيد وقدرة على التحكم فيها بما يشبه مقود

السيارة، فهذا هو المنهج الرباني الذي بينه لنا الله تعالى خالق الإنسان ، فإذا أدت العجلة التي رُكِّبَت فينا إلى هلاكنا ، فالخطأ ليس في العجلة ، ولكن الخطأ في أن هذه العجلة تحرَّكت من دون مِقْوَد ، من دون شرعٍ يهتدي به الإنسان إلى سواء السبيل.

العجلة المحمودة والعجلة المذمومة

والعجلة مذمومة فيما كان المطلوب فيه الأناة، محمودة فيما يطلب تعجيله من المسارعة إلى الخيرات ونحوها، كما سيأتي إن شاء الله، وإلى هذا أرشدَنا النبي ﷺ فقال: **"التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ"**(رواه أبو يعلى وصححه الألباني)

قال ابن القيم رحمه الله: "إنَّما كانت العجلة من الشَّيطان؛ لأنَّها خفَّة وطيشٌ وحدَّةٌ في العبد تمنعه من التَّثبُّت والوقار والحلم، وتُوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعا من الشُّرور وتمنعه أنواعا من الخيور[14] ، وهي قرين النَّدامة فقلَّ من استعجل إلَّا ندم، وهي متولِّدةٌ بين خلقين مذمومين: التَّفريط والاستعجال قبل الوقت، يتولَّد منهما العجلة"[15]

أولا/ صور العجلةِ المذمومةِ

1-الاستعجالُ بالدعاءِ على الأهلِ، والمالِ والولدِ عند الغضبِ:

قال تعالى: **(وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عجولاً)** [الإسراء:11]

أي أن الإنسان أحيانًا من شدة الغضب أو الضيق **يدعو بالشر كما يدعو بالخير**، لكنه لا يتفكر في العاقبة؛ لأنه **عجول**، يتكلم بسرعة، وينفعل بسرعة، وقد يقول دعاءً يندم عليه بعد أن يهدأ.

وروى مسلمٌ في صحيحِهِ منْ حديثِ جابرٍ -رضي اللهُ عنهُ- قال: قالَ النبيُّ -ﷺ-: "لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لاَ تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ"

---

[14] جمع خير

[15] الروح ص "258"

والمقصود من ذلك: **التحذير من أن يدعو الإنسان بالشر وقت الغضب** على نفسه، أو أهله، أو أولاده، أو ماله، مثل أن يقول:
"الله يأخذك"، "الله لا يوفقك"، "يا رب يحصل لك كذا"، "يا رب أموت وأستريح"، ونحو ذلك.

ثم بيّن النبي ﷺ السبب:**"لا توافقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاء فيستجيب لكم"**

أي قد يكون هذا الدعاء في وقت إجابة، فيقع ما دعوت به، ثم تندم ندمًا شديدًا، لأن الغضب يجعل الإنسان لا يزن كلامه، وقد يكون بالفعل الولد قد أخطأ، أو الزوجة أخطأت، أو ضاقت بك الدنيا لخسارة أو فقد شيء، فهنا يدعو على نفسه أو ولده، لكن المؤمن العاقل يحفظ لسانه، خصوصًا في الدعاء؛ **فبدلا من قول:** "الله لا يوفقك" يقول: **"الله يهديك ويصلحك."أو "اللهم أصلح ولدي، واهد قلبه، واجعله بارًا صالحًا."**

2-استعجالُ المرءِ إجابةَ دعائِهِ:

عن أبي هريرةَ -رضي اللهُ عنهُ -: أنَّ النبيَّ -ﷺ-قال: "يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي". رواه البخاريُّ ومسلمٌ. أي أن العبد قريب من إجابة الله لدعائه، ما دام مستمرًا في الدعاء، محسنًا الظن بربه، غير يائس ولا متسخّط.

وقوله" :فيقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي"أي يقول بلسانه أو بقلبه: دعوت كثيرًا ولم أرَ إجابة، فيضعف رجاؤه، وربما يترك الدعاء. وهذا من العجلة المذمومة.

وليس معنى الحديث أن كل دعاء يُعطى للعبد بنفس الصورة التي طلبها فورًا، بل إجابة الدعاء قد تكون بأحد أمور:

2. أن يعطيه الله ما طلب .
3. أو يدفع عنه شرًا بسبب دعائه .
4. أو يؤخر له ثواب الدعاء إلى الآخرة .
5. أو يؤخر الإجابة لحكمة ورحمة لا يعلمها العبد .

فالله تعالى حكيم رحيم، قد يمنع الشيء لأن فيه ضررًا، أو يؤخره لأن الوقت الأنسب لم يأتِ بعد، أو يعطي العبد خيرًا منه.

3-استعجالُ بعضِ المصلينَ في صلاتِهِمْ:

من الأخطاء المنتشرة بين بعض المصلين :**الاستعجال في الصلاة**، فيركع المصلي سريعًا، ويسجد سريعًا، ويقرأ بسرعة، وربما لا يطمئن في ركوعه ولا سجوده ولا قيامه ولا جلوسه، وهذا خطأ عظيم؛ لأن الصلاة ليست حركات تؤدَّى بسرعة، بل هي عبادة عظيمة يقف فيها العبد بين يدي الله تعالى.

وقد جاء في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رجلا صلى عند النبي -ﷺ-، فقال له النبي -ﷺ-: "ارجع فصل فإنك لم تصل" -ثلاث مرات- في كل مرة يقول له ذلك. ثم قال له: "إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فكبر، ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تستوي قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا.." الحديث.

ومعنى ذلك أن **الطمأنينة ركن من أركان الصلاة**، فلا تصح الصلاة بدونها عند جمهور أهل العلم. والطمأنينة هي أن يستقر الإنسان في كل ركن من أركان الصلاة قدرًا يظهر فيه سكونه، فلا يكون كمن ينقر الصلاة نقرًا.

ومن صور الاستعجال في الصلاة: أن يركع المصلي ولا يستقر راكعًا، أو يرفع من الركوع قبل أن يعتدل قائمًا، أو يسجد ثم يرفع بسرعة قبل أن يطمئن، أو يقرأ الفاتحة بسرعة شديدة لا يتدبرها ولا يحسن نطقها.

4-الاستعجال في الطلاق:

من صور الاستعجال الخطيرة التي يقع فيها بعض الناس :**الاستعجال في الطلاق** عند أول خلاف أو غضب أو ضيق، فيتسرع الزوج في لفظ الطلاق، أو تطلب الزوجة الطلاق بسرعة، دون تفكير في العواقب ودون محاولة إصلاح.

والطلاق في الإسلام مشروع عند الحاجة، لكنه ليس كلمة سهلة تُقال عند الغضب أو التهديد أو الخصام، بل هو قرار خطير يترتب عليه تفكك الأسرة، وضياع المودة، وتأثر الأولاد، وندم كثير من الناس بعد فوات الأوان.

وقد قال الله تعالى في شأن الخلاف بين الزوجين: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا**﴾ [النساء: 35]، فدلّت الآية على أن الأصل عند الخلاف هو **السعي للإصلاح**، لا المبادرة إلى الطلاق.

ومن صور الاستعجال في الطلاق:

- أن يطلق الرجل زوجته وهو شديد الغضب.
- أو يجعل الطلاق وسيلة للتهديد، فيقول: "عليّ الطلاق" في كل موقف.
- أو يطلق لأمر بسيط يمكن علاجه بالحوار والصبر.
- وكذلك من الاستعجال أن تطلب المرأة الطلاق لمجرد مشكلة عابرة.
- أو بسبب ضغط نفسي مؤقت، دون نظر إلى المصالح والمفاسد.

فيُطَلِّقُ الرجلَ زوجتَه لأقلِّ الأسبابِ، لمجرَّد جدالٍ وخصامٍ بسيطٍ يحصلُ في كلِّ بيتٍ، أوْ لِتقصيرِها في بعضِ الأمورِ؛ فيهدمُ بيتَه، ويفرِّق أسرتَه، دونَ تروٍّ أوْ أناةٍ أو الصبرِ عليها؛ ويكرر الطلاق مرة واثنين ثم تقع الثالثة النهائية ويرجع فيعض أصابع الندم ويبحث ويسأل المشايخ ودور الفتوى عن مخرج.

فالواجب على الزوجين عند الخلاف أن يهدآ، وأن يتذكرا العشرة والمودة، وأن لا يجعلا الشيطان يفرح بتفريقهما، فالشيطان يحب أن يفسد البيوت ويوقع العداوة بين الزوجين.

5- العجلةُ في الحلفِ:

فقدْ يحصلُ بينَ الرّجُلِ وزوجتِهِ أو صديقِهِ وغيرهم بعضُ المواقفِ، فتأتيهِ العجلةُ، فيحلفُ واللهِ لأفعلنَّ كذا على سبيل الوعيد، أوْ واللهِ لا أكلمك؛ بِلا شعورٍ ولا تروٍّ، ثمّ يتبينُ لهُ أنهُ قدْ استعجلَ في اليمينِ، ولمْ يُصِبْ حينما حَلَفَ، فيقعُ بينَ أمرينِ:

- إمَّا أنْ يمضي في يمينِهِ.
- وإمَّا أنْ يكفرَ عنها ويأتيَ الذي هو خيرٌ منها.

وهذا الأخيرُ هو الذي يتعينُ في حقِهِ؛ فقد قال -ﷺ-:**"وَإِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ أَرَى خَيْرًا مِنْهَا إِلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ"**(رواهُ مسلم).

6-العجلةُ في قيادةِ السياراتِ:

ومن صور العجلة المحرمة أو الخطيرة في القيادة:

- أن يقود الإنسان بسرعة عالية جدا ليصل قبل الوقت، فيتجاوز السيارات بطريقة متهورة، أو يقطع الإشارة الحمراء.
- أو يستخدم الهاتف أثناء القيادة بالرد على الرسائل.
- أو يقود وهو شديد التعب أو الغضب.
- أو يتسابق في الطريق مع صديقه.

وهذه الأمور ليست مجرد مخالفات مرورية، بل قد تكون **إثمًا شرعًا** إذا عرّضت النفس أو الآخرين للخطر.

فالإسلام أمر بحفظ النفس، **قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾** [النساء: 29]، **وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾** [البقرة: 195]

والسائق المستعجل لا يضر نفسه فقط، بل قد يقتل أو يصيب غيره: طفلًا، أو امرأة، أو شيخًا، أو عاملًا في الطريق، ولهذا فالاستهانة بالقيادة خطأ كبير، لأن السيارة قد تتحول بسبب التهور إلى أداة أذى وقتل.

والعاقل يتذكر أن دقائق قليلة لا تستحق أن يعرّض بسببها حياته وحياة الناس للخطر، وربما استعجل الإنسان ليصل إلى موعد، فيقع في حادث يندم عليه عمره كله.

7-أنْ يستبطئُ الإنسانُ الرزقَ:

من صور الاستعجال المذموم: أن **يستبطئ الإنسان الرزق**، أي يرى أن رزقه تأخر، فيقلق ويجزع، وربما يتضايق من قضاء الله، أو يطلب الرزق بطرق

محرمة، أو أن يقارن نفسه بالناس ويحسدهم، أو أن يدخل في مال حرام بحجة الحاجة، أو أن ييأس من الدعاء والعمل.

والواجب على المسلم أن يعلم أن الرزق بيد الله وحده، وأن الله قد قسم الأرزاق بحكمة، **قال تعالى:** ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22] **وقال سبحانه:** ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]

فالرزق مكتوب، لكنه لا يعني ترك السعي، بل على الإنسان أن يأخذ بالأسباب: يعمل، ويتعلم، ويجتهد، ويبحث عن الحلال، ثم يرضى بما قسمه الله له.

وقد قال النبي ﷺ ":**إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته**"[رواه ابن أبي شيبة في المصنف، وصححه الألباني في صحيح الجامع.]

ومعنى الحديث: لا أحد سيموت قبل أن يأخذ رزقه كاملًا، فلا تجعل تأخر الرزق يدفعك إلى الحرام، كالغش، أو الرشوة، أو الربا، أو الكذب، أو أكل أموال الناس بالباطل.

وينسب للإمام الشافعي قوله:

لا تعجَلَنَّ فليسَ الرِّزقُ بالعجَلِ ***الرِّزقُ في اللَّوحِ مكتُوبٌ مع الأَجَلِ

فلو صبَرنَا لكانَ الرِّزقُ يطلُبُنا ***لكنَّه الإنسانُ خُلِقَ مِن عجَلِ

فالرزق مكتوب، ولن يموت الإنسان حتى يأخذ رزقه كاملًا، فلا يجوز أن يدفعه تأخر الرزق إلى الحرام؛ كالربا، أو الرشوة، أو الغش، أو أكل أموال الناس بالباطل؛ فما عند الله من رزق وبركة لا يُطلب بمعصيته، بل بطاعته والصبر وحسن التوكل عليه.

8- العجلةُ في نقلِ الأخبارِ:

وهي من الأخطاء الخطيرة التي يقع فيها بعض الناس، خاصة مع كثرة وسائل التواصل، فبعض الناس إذا سمع خبرًا أو وصله مقطع أو رسالة، بادر إلى نشره فورًا، دون أن يسأل نفسه:

- هل هذا الخبر صحيح؟ هل مصدره موثوق؟
- هل في نشره ضرر؟ هل هو من الغيبة أو الفتنة أو الكذب؟

لأن المسلم مأمور أن يكون **صادقًا متثبتًا**، لا ينقل كل ما يسمع، وقد قال النبي ﷺ: **"كفي بالمرء كذبًا أن يحدّث بكل ما سمع"** أي يكفي الإنسان سببًا لأن يقع في الكذب أو يُنسب إليه الكذب أن ينقل كل خبر يسمعه، لأن الأخبار التي يسمعها فيها الصحيح وفيها الكاذب، فإذا نشرها كلها من غير تثبت، فلا بد أن ينشر كذبًا ولو لم يقصد، وقد يكون الإنسان لا يريد الكذب، لكنه بسبب عجلته ينشر خبرًا باطلًا، فيؤذي شخصًا، أو يثير فتنة، أو يظلم بريئًا، أو يخيف الناس، أو يشيع الفاحشة، ثم يندم بعد ذلك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات: 6]

ومن صور ذلك اليوم :أن ينشر الإنسان إشاعة عن شخص، أو خبر وفاة غير مؤكد، أو اتهامًا بغير دليل، أو فتوى لا يعرف صحتها، أو خبرًا يثير الخوف بين الناس، أو مقطعًا مجتزأً يسيء إلى صاحبه.

9-العجلة في الحكمُ على الأشخاصِ:

من صور العجلة الخطيرة: أن يتسرع الإنسان في **الحكم على الناس**، فيقول عن فلان: هذا فاسق، أو كافر، أو كذاب، أو مبتدع، أو صاحب رأي مخالف للشرع، من غير تثبت ولا علم ولا ورع.

ومن أسباب العجلة في الحكم على الناس:

الغضب، والتعصب، وسماع الإشاعات، واتباع الهوى، والرغبة في الانتصار للنفس، أو التأثر بمقاطع قصيرة ومنشورات مجتزأة.

وهذا باب خطير جدًا؛ لأن الكلام في أعراض الناس ودينهم ليس أمرًا سهلًا، بل يحتاج إلى **علم وعدل وتثبت وخوف من الله**؛ فقد يرى الإنسان موقفًا واحدًا من شخص، أو يسمع عنه خبرًا، أو يقرأ له كلامًا مجتزأً، فيبادر مباشرة إلى الحكم عليه، وهذا من الظلم؛ لأن الإنسان قد يخطئ، أو يُنقل عنه الكلام بغير وجهه، أو يكون له عذر، أو يكون جاهلًا، أو تاب من فعله، أو لم يقصد المعنى الذي فُهم منه.

وقد نهى الله تعالى عن القول بغير علم، فقال: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ **[الإسراء: 36]**، أي: لا تتبع ما لا تعلم حقيقته، ولا تتكلم فيما ليس عندك فيه بينة.

وقال تعالى: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ **[ق: 18]**، فكل كلمة يقولها الإنسان محسوبة عليه، خاصة إذا كانت في دين الناس وأعراضهم.

والأخطر من ذلك **الحكم بالكفر**؛ فلا يجوز للمسلم أن يكفّر أحدًا بعينه بلا علم ولا تحقق شروط وانتفاء موانع، لأن هذا الحكم له خطورة عظيمة، وقد قال النبي ﷺ: **"إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما** أي إن لم يكن الآخر مستحقًا لهذا الوصف، رجع الإثم والخطر على القائل، وكذلك وصف الناس بالفسق أو الكذب أو النفاق أو الضلال لا يجوز أن يكون بالهوى أو الغضب أو بسبب خلاف شخصي، بل لا بد من بينة وعدل، فقد يكون الشخص وقع في معصية، لكن لا يلزم أن نحكم عليه حكمًا عامًا ونفضحه بين الناس.

والواجب على المسلم إذا رأى خطأ من غيره أن يفرّق بين أمرين:

الحكم على الفعل و**الحكم على الشخص**: فنقول مثلًا: هذا الفعل حرام، أو هذا الكلام خطأ، أو هذا التصرف لا يجوز، لكن لا نتعجل فنقول: فلان فاسق، أو فلان منافق، أو فلان كافر، إلا بعلم وبينة ومن أهل الاختصاص.

10-العجَلَة في طلَبِ العلمِ:

المقصود من هذا الباب :**أن طالب العلم لا ينبغي أن يستعجل الوصول إلى مرتبة التعليم والفتوى والظهور قبل أن ينضج علمه**؛ فبعض الناس يبدأ طلب العلم، ثم بعد قليل يريد أن يتصدر، ويفتي، ويناقش الكبار، ويظهر أمام الناس أنه عالم أو طالب علم كبير، مع أنه لم يتدرج بعد، ولم يأخذ العلم من أهله، ولم يصبر على الطريق.

فطلب العلم له مراحل، مثل البناء، لا يصح أن تبني الطابق الثالث قبل الأساس، فلا يبدأ الإنسان بالمسائل الكبرى والخلافات العميقة قبل أن يتعلم الأصول، ولا يتكلم في الفتوى قبل أن يفقه أدلة الأحكام من القرآن، والسنة، وأقوال العلماء، والقواعد، ومقاصد الشريعة، وحال الناس.

قال عبد الله بن المبارك: العلم ثلاثة أشبار، من دخل الشبر الأول تكبر، ومن دخل الشبر الثاني تواضع، ومن دخل إلى الشبر الثالث علم أنه لم يعلم.

ومعنى كلامه رحمه الله: في بداية العلم، قد يظن الإنسان أنه فهم كل شيء، فيتكبر، ثم كلما زاد علمه، عرف أن المسائل أعمق مما كان يظن، فيتواضع، ثم إذا بلغ قدرًا أعلى من العلم، أدرك أن علمه قليل أمام علم الله، وأمام سعة علوم الشريعة، فيقول: "ما زلت أحتاج أن أتعلم."

نتائج العجلة في العلم

من يستعجل في طلب العلم قد يقع في أمور خطيرة، مثل:

- **الخطأ في الفتوى لأنه** يجيب بسرعة دون فهم كامل للمسألة.
- **فهم أعوج للنصوص** :يأخذ آية أو حديثًا ويفهمه وحده دون باقي الأدلة.
- **استدلالات خاطئة** :يستعمل الدليل في غير موضعه.

مثال: شخص يسمع حديثًا واحدًا في مسألة، فيحكم على الناس مباشرة، وهو لا يعرف هل الحديث عام أو خاص، مطلق أو مقيد، ناسخ أو منسوخ محكم أو متشابه، وهل هناك أقوال للعلماء في المسألة.

صور العجلة المحمودة

1- ما كانَ فيهِ طاعةٌ للهِ وقربةٌ:

لأنَّ في تأخيرِ الخيراتِ آفاتٍ، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]

وعن سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ -رضي اللهُ عنهُ-أنَّ النَّبِيّ -ﷺ- قَالَ: "التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيءٍ خيرٌ إلا في عملِ الآخرةِ"رواه أبو داود في سننه، وصححه الإمام الألباني

وعن ابن عباسٍ – رضي الله عنهما-قال ﷺ-: "تعجَّلُوا إلى الحجِّ؛ فإن أحدَكم لا يدرِي ما يعرِضُ له"؛ أخرجه أحمد

والإنسان لا يضمن ألا تأتيه المعوقات التي يصعب على الإنسان معها أن يؤدي ما عليه من طاعات، **فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) رواه مسلم.**

2- المُبادرةَ والمُسارعةَ إلى التوبةِ والاستِغفار:

والله يقبَلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغِر، والعبدُ لا يدرِي متى يفجَؤُه الموتُ، فلا يُمكَّنُ مِن التوبة، **يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 17-18]**

فالتوبة من الأمور العاجلة التي لا تحتاج إلى تسويف؛ فلربما أتى الموت بغتةً فيحتاج الإنسان أن يتوب، ولكن قد أُغلق باب التوبة دونه!

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما-، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ-، قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ، مَا لَمْ يُغَرْغِرْ) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

وعَنْ أَبِي مُوسَى -رضي الله عنه-، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ-، قَالَ: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) رواه مسلم.

3- الإسراعُ بالميّت في تغسِيلِه وتكفِينِه والصلاةِ عليه ودفنِه:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله –ﷺ– قال: (أسرعوا بالجنازة؛ فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم) متفق عليه.

4- الاستِعجال في ردِّ الحُقوق إلى أصحابِها:

والتحلُّل مِنها قبل يوم القِيامة، سواءً كانت مظلمة، أو ديُونًا، أو مِيراثًا، أو عارِيةً، أو وديعةً، أو استِيفاءً لبيعٍ وشراءٍ، ولا يجوزُ للمُسلم أبدًا أن يحبِسَ حُقوقَ الناس عنده؛ فإن ذلك مِن الظُّلم والبَغي.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ) رواه البخاري.

وعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: (نَفْسُ المُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ) رواه الإمام الترمذي، وصححه الشيخ الألباني.

5- المُسارعةُ لتزويجِ الفتاةِ مِن الكُفؤ المُناسِبِ:

فإذا تقدّم للفتاة رجلٌ صالحٌ نرضى دينه وخلقه وعنده قدرة على تحمّل مسؤولية الزواج، ورضيت به الفتاة، فلا ينبغي للأهل أن يؤخّروا الزواج بلا سبب معتبر.

قال النبي ﷺ: (**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**) رواه الترمذي.

يعني: إذا جاء رجل يُرضى دينه وخلقه، فلا تردّوه لأسباب دنيوية مبالغ فيها؛ لأن التأخير أو التعسير قد يفتح أبواب الفتنة، أو التعلّق المحرّم، أو ضياع الفرص المناسبة.

لكن **المسارعة لا تعني التسرّع الأعمى**. بل المقصود: أن نسأل عنه جيدًا، وننظر في دينه وأخلاقه وعمله وأهله وسيرته، وتُستشار الفتاة، ولا تُجبر، ثم إذا تبيّن أنه مناسب فلا نُطيل بلا حاجة.

علاج العجلة

الاستِعجالَ آفةٌ مُهلِكةٌ إذا لم يُبادِرِ العبدُ إلى إصلاحِها وتهذيبِها، وذلك لا يتمُّ له إلا بأمورٍ مُهمَّة، مِنها:

1- تعويد النفسِ وتمرينُها على التأنِّي والتعقُّل:

قبل أن يصدُرَ مِنه أيُّ قولٍ أو فعلٍ أو رأيٍ، وقد ثبَتَ عنه ــ ﷺ ــ أنه قال: **"التأنِّي مِن الله، والعجَلَةُ مِن الشيطان"** أخرجه البيهقي في "الشعب" مِن حديث أنسِ بن مالكٍ ــ رضي الله عنه.-

وقد يكون خُلُق التأنِّي والتُّؤَدة والرَّزانة وَهبيًّا مِنَّةً مِن الله على عبدِه، كما يدلُّ عليه حديثُ أشَجّ عبد القَيس حينما قال له النبيُّ ﷺ-: **"إن فِيك لخَصلتَين يُحبُّهما الله: الحِلمَ، والأَناة"**؛ أخرجه مسلم.

2- مُطالعةِ عِبَر التاريخ، وتجارب الأمم، والقراءة في سِيَر العُقلاء والحكماء.

3- إمعان النظر في الآثار والعواقب المترتبة على الاستعجال:

فإن ذلك مما يهدئ النفس، ويحمل على التريث والتأني، ومن واقعنا المعاصر نرى كثيرًا من الناس يندمون حين لا ينفعهم الندم، بسبب استعجالهم في أمور كان عليهم أن يتَأَنَّوْا فيها، فمن ذلك أنه لأقل الأسباب يطلق الرجل زوجته، فتتشتت الأسر، ويضيع الأطفال، وتهدم البيوت، وكذلك ما نسمعه من الحوادث المروعة التي كانت سببًا لإزهاق نفوس كثيرة، وأمراض خطيرة، وعاهات مزمنة، إنما وقع بسبب العجلة.

4- الجُلُوس مع أهل العلم والخِبرة والتجرِبة:

ومُشاورتهم قبل الإقدام على أمر والاستماع للآراء والنصائح منهم مِن أجل اتِّقاء شرِّ الاستِعجال في اتِّخاذ القرارات هينةً كانت أم عظيمة، ولم يكُن أحدٌ أكثرَ مُشاروةً لأصحابِه مِن رسولِ الله ﷺ-، وهو النبيُّ المُوحَى إليه.

5- صلاة الاستخارة:

لأن الإنسان مخلوق ضعيف، بحاجة إلى إعانة الله تعالى في أموره كلها؛ وذلك لأنه لا يعلم الغيب، فلا يدري أين موطن الخير والشر فيما يستقبله من حوادث ووقائع؟ وإن العبد المسلم على يقين لا يخالطه شك أن تدابير الأمور وصرفها بيد الله سبحانه وتعالى وأنه يقدر ويقضي بما شاء، في خلقه، **والصحابي الجليل جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يعلمنا الاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ.."**

والمسلم في هذه الدنيا تعرض له أمور يتحير منها، فعندما يقدم على عمل ما كشراء سيارة، أو يريد الزواج أو يعمل في وظيفة معينة أو يريد سفراً فإنه يستخير له، لذا كان من حكمة الله سبحانه ورحمته بعباده أن شرع لهم هذا الدعاء، لكي يتوسلوا بربهم ويستغيثوا به في توجيه السير نحو الخير والنفع.

وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال (من سعادة ابن آدم استخارته الله تعالى، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله، ومن شقوة ابن آدم تركه استخارة الله عز وجل، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله) رواه الإمام أحمد.

الخلاصة:

1. أن منشأ العجلة غالبًا قصور العلم بالعواقب، وضعف التقدير لما يترتب على الأقوال والأفعال.
2. أن العجلة هي طلب الشيء قبل أوانه، أما الحكمة فهي فعل الشيء في وقته المناسب، وتأخيره عن وقته إهمال وتقصير.
3. أن العجلة ليست مذمومة بإطلاق؛ فهي مذمومة فيما يحتاج إلى تثبت، ومحمودة في الطاعات والخيرات التي ينبغي المسارعة إليها.
4. أن التأنّي والحلم والوقار أخلاق يحبها الله، بينما التسرع والطيش يوقعان الإنسان في الخطأ والندامة.
5. وجوب حفظ اللسان عند الغضب، ولا سيما من الدعاء على النفس والأهل والأولاد والمال؛ فقد يندم الإنسان إذا وافق دعاؤه ساعة إجابة.
6. أن تأخر إجابة الدعاء لا يعني رده؛ فقد يعطي الله العبد ما طلب، أو يصرف عنه شرًّا، أو يدخر له الثواب، أو يؤخر الإجابة لحكمة.
7. أن الطلاق قرار خطير لا ينبغي اتخاذه تحت تأثير الغضب أو بسبب خلاف عابر، بل تُقدَّم عليه وسائل الإصلاح والتحكيم والتشاور.
8. أن استبطاء الرزق لا يبيح طلبه بالحرام؛ فالرزق مقدر، وعلى المسلم أن يسعى في أسبابه المشروعة ويحسن التوكل على الله.
9. وجوب التثبت قبل نشر الأخبار والمقاطع والفتاوى؛ لأن نقل كل ما يُسمع قد يوقع في الكذب والظلم والفتنة.
10. عدم التسرع في الحكم على الأشخاص، وضرورة التفريق بين الحكم على الفعل والحكم على فاعله، ولا سيما في مسائل التكفير والتفسيق والتبديع.

11. أن طلب العلم يحتاج إلى صبر وتدرج وتواضع، ولا يجوز لطالبه أن يتصدر للتعليم والفتوى قبل التأهل.

12. من العجلة المحمودة: المسارعة إلى الطاعات، والتوبة والاستغفار، وقضاء الحقوق والديون، وتجهيز الميت ودفنه، وتزويج الكفء بعد التحقق والاستشارة.

13. من أهم وسائل علاج العجلة: تدريب النفس على التأنّي، والنظر في العواقب، والاتعاظ بتجارب الآخرين، ومشاورة أهل العلم والخبرة.

14. أن الاستخارة من أعظم ما يعين على اتخاذ القرارات؛ لأنها تجمع بين تفويض الأمر لله، والأخذ بالأسباب، والرضا بما يقدره سبحانه.

****

الإنسان في القرآن

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) [الحج: 11]

10- (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

[الحج: 11]

نَحْنُ في هذه الدنيا في دار امْتِحَانٍ عظيم، وكلُّ يومٍ يحمل لنا امتحانًا جديدًا، **قال تعالى:** ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 2]

فكل عطاء من الله من المَالُ، أو الزَّوْجَةُ، أو الوَلَدُ، أو الغِنَى، أو الصِّحَّةُ، أو الأمن هو امتحان لنا من الله هل سنؤدي شكر نعمه ونجعلها في طاعته أم لا؟

وكل ما يصيب العبد من مرضٍ أو خوفٍ أو فقرٍ أو ظلمٍ هو أيضا امتحان لنا من الله هل سنصبر ونحتسب أم نسخط ونجزع؟

والله يريدك أيها المؤمن عبداً له في السراء وفي الضراء، فكلاهما فتنة واختبار، فلَيْسَ منا أَحَدٌ إلا وَهُوَ مُمْتَحَنٌ، وَلَيْسَ هناك مَن هُوَ أَكْبَرُ من أَنْ يُمْتَحَنَ، والذي ابْتَلانَا هُوَ الذي أَنْعَمَ عَلَيْنَا، والذي أَخَذَ مِنَّا هُوَ الذي أَغْدَقَ عَلَيْنَا، والذي أَخَافَنَا هُوَ الذي أَسْبَغَ عَلَيْنَا نِعْمَةَ الأَمْنِ، والذي أَجَاعَنَا هُوَ الذي أَطْعَمَنَا من جُوعٍ.

وفي هذا المعنى قال النبي ﷺ حين سَأَلَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ" رواه الإمام أحمد.

لَيْسَ في البَشَرِ مَن يَمْلِكُ رَفْضَ الامْتِحَانِ، وَلَكِنْ فِينَا مَن يُمْتَحَنُ بالبَلاءِ فَيَنْجَحُ بالصَّبْرِ والإيمَانِ والاحْتِسَابِ، فَيَكُونُ نِعْمَ العَبْدُ، وَفِينَا مَن يُمْتَحَنُ بالبَلاءِ فَيَرْسُبُ بالجَزَعِ والاعْتِرَاضِ على اللهِ تعالى، فَيَخْسَرُ الدُّنْيَا والآخِرَةَ.

وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11]

عَلى حَرْفٍ: حرف الشيء طرفه أو أوله أي على شك بغير ثقة.

والمعنى أن هناك صنفا من الناس دَخَلَ فِي الدِّينِ عَلَى حرف، أي لم يتمكن الإسلام من قلبه، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُحِبُّهُ من متاع الدنيا استمر واسْتَقَرَّ، وإن لم يجد ما يلبي شهواته ورغباته ترك دينه وكفر.

وقوله تعالى :"خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين " الخسران كل الخسران أن تكون صلة العبد بربه هزيلة يثبت إذا وجد نفعا وينحرف إذا تعرض إلى اختبار ومحنة، ومن الخسران أن يعبد العبد ربه إذا كان في التعبد منفعة وإن لم يكن فيه منفعة عاجلة ترك العبادة.

فهذا الصنف من الناس لم يتمكن الإيمان من قلبه، بل هو مزعزع العقيدة، تتحكم مصالحه في إيمانه، فإن أصابه خير فرح به واطمأن، وإن أصابته شدة في نفسه أو في ماله أو في ولده انتكس، فخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران الحقيقي الواضح المبين.

وفي صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ في هذه الآية: كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ الْمَدِينَةَ، فَإِنْ وَلَدَتِ امْرَأَتُهُ غُلاَمًا، وَنُتِجَتْ خَيْلُهُ قَالَ هَذَا دِينٌ صَالِحٌ، وَإِنْ لَمْ تَلِدِ امْرَأَتُهُ وَلَمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ قَالَ هَذَا دِينُ سُوءٍ)

وهكذا ينظر بعض الناس إلى الدين على أنه رغد في العيش وسعة في الرزق يجلب النفع، ويربح التجارة، فإذا أصابه ما يكره لم يصبر عليه، ونكص على عقبيه وخسر دينه ودنياه.

المؤمنُ شاكر عندَ العطاءِ صابر عند البلاء:

والمؤمنَ الحقَّ هوَ الذي يكونُ شاكراً لِنِعَمِ الله -تعالى- عليه، فلا يَصرِفُ هذهِ النِّعَمَ إلا وِفقَ طاعةِ الله -عزَّ وجلَّ-، إن أعطاهُ اللهُ -تعالى- نِعمةَ الجاهِ والسُّلطانِ، وإن أعطاهُ نِعمةَ الصِّحَّةِ والقُوَّةِ، وإن أعطاهُ نِعمةَ المالِ وسائِرَ النِّعَمِ فهوَ لا يطغى بها؛ لأنَّهُ يعرفُ مصدرها بأنَّها من الله -تعالى-، وأنَّ اللهَ -تعالى- ما أعطاهُ إيَّاها إلا للاختبارِ والابتلاءِ.

قال تعالى حكايةً عن سليمانَ -عليه السَّلامُ- عندما قالَ لقومِهِ: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ

أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾
[النمل: 38-40]

فالمؤمنُ يكونُ شاكراً عندَ العطاءِ، ويكونُ على حَذَرٍ من الغرورِ والاستكبارِ والظُّلمِ وكُفرانِ النِّعَمِ.

أمَّا في الشَّدائدِ والمِحَنِ والابتلاءاتِ فيكونُ صابراً؛ لأنَّهُ يطمعُ بعطاءِ الله -تعالى- بعدَ المِحَنِ، ولأنَّهُ على يقينٍ بأنَّهُ ما من مِحنةٍ إلا وتحملُ في طَيَّاتِها مِنَحاً، كيف لا يكونُ هذا اعتقادُهُ وهوَ يقرأ **قولَ الله -تعالى-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾** [البقرة: 155-157]، كيفَ لا يكونُ صابراً وهوَ يعلمُ حديثَ رسولِ الله -ﷺ-: إذ يقولُ: **"عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ" [رواه مسلم]**

ويعلمُ حديثَ رسولِ الله -ﷺ-: "مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ" [رواه مسلم].

فيجبُ علينا ألا ننسى الغايةَ من خلقِنا في هذهِ الحياةِ الدُّنيا، فما خُلِقنا إلا للعبادةِ، ومن العبادةِ: الشُّكرُ في الرَّخاءِ، والصَّبرُ في البلاءِ، فمن شَكَرَ في الرَّخاءِ كانَ نِعمَ العبدُ، ومن صَبَرَ في البلاءِ كانَ نِعمَ العبدُ، وبئسَ العبدُ الذي يطغى عندَ العطاءِ، ويضجرُ عندَ البلاءِ.

فَهْمُ سَلَفِنَا الصَّالِحِ للابْتِلاءِ:

لَقَد فَهِمَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ حَقِيقَةَ الابْتِلاءِ، وَفَهِمُوا الحِكْمَةَ الشَّرْعِيَّةَ للابْتِلاءِ، فَكَانُوا أَفْضَلَ مِنَّا حَالاً، وَضَرَبُوا أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ في الصَّبْرِ والاحْتِسَابِ.

فهذا عمر رضي الله عنه كان يحمد الله تعالى على الابتلاء، فقد كان يقول:

ما ابتليت ببلية إلا كان لله على فيها أربع نعم، إذ لم تكن في ديني، وإذ لم أحرم الرضا، وإذ لم تكن أعظم مما كانت، وأني أرجو الثواب عليها.

وهذا عروة بن الزبير رضي الله عنهما، لما بترت (قطعت) رجله، وفقد ولده، قال: اللهم لك الحمد، كان لي أطراف أربعة، فأخذت واحدا، فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت، وإن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت، وقال في ولده: الحمد لله، كانوا سبعة، فأخذت منهم واحدا وأبقيت ستة، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت.

الابْتِلاءُ يَرُدُّ العَبْدَ إلى حَقِيقَتِهِ:

والابْتِلاءُ يَرُدُّ العَبْدَ إلى حَقِيقَتِهِ، وَيُظْهِرُ مَعْدِنَهُ، **قَالَ تعالى:** ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 2-3]

وَرَحِمَ اللهُ تعالى الفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ حِينَ قَالَ: النَّاسُ مَا دَامُوا فِي عَافِيَةٍ مَسْتُورُونَ، فَإِذَا نَزَلَ بِهِمُ البَلاءُ صَارُوا إلى حَقَائِقِهِم، فَصَارَ المُؤْمِنُ إلى إيمَانِهِ، وَصَارَ المُنَافِقُ إلى نِفَاقِهِ. اهـ.

الحكمة من الابتلاء:

للمصائب والابتلاءات في الكتاب والسنة سببان اثنان مباشران – إلى جانب حكمة الله تعالى في قضائه وقدره:

السبب الأول: الذنوب والمعاصي التي يرتكبها الإنسان، سواء كانت صغيرة أم كبيرة من الكبائر، فيبتلي الله عز وجل بسببها صاحبها بالمصيبة على وجه المجازاة والعقوبة العاجلة؛ **يقول تعالى:** ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: 79]، قال المفسرون: أي بذنبك.

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ

لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) رواه الترمذي وصححه الألباني.

السبب الثاني: إرادة الله تعالى رفعة درجات المؤمن الصابر، فيبتليه بالمصيبة ليرضى ويصبر فيُوفي أجر الصابرين في الآخرة، ويكتب عند الله من الفائزين، وقد وقع البلاء بالأنبياء والصالحين فجعله الله تعالى مكرمة لهم ينالون به الدرجة العالية في الجنة.

ولهذا جاء في الحديث: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ) رواه أبو داود وصححه الألباني.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :(إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ (رواه الترمذي وصححه الشيخ الألباني

وقد جُمع السببان في حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: (مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً) رواه البخاري ومسلم.

قال بعض الصالحين: " علامة الابتلاء على وجه العقوبة والمقابلة: عدم الصبر عند وجود البلاء، والجزع والشكوى إلى الخلق.
وعلامة الابتلاء تكفيراً وتمحيصاً للخطيئات: وجود الصبر الجميل من غير شكوى، ولا جزع ولا ضجر، ولا ثقل في أداء الأوامر والطاعات.
وعلامة الابتلاء لارتفاع الدرجات: وجود الرضا والموافقة، وطمأنينة النفس، والسكون للأقدار حتى تنكشف "

وسُئلَ الجُنَيد رحمه الله: بِمَ نعرف أن البلاء نزل غَضَباً، أو كفّارةَ ذنوب، أم رَفعَ درجات؟ قال: بحسب ما تكون حين تَلَقّي البلاء: إن تلقيتَهُ بغضب، فهو غضب، وإن تلقيته بالتوبة والاستغفار، فهو كفارة، وإن تلقيته بالرضا بقضاء الله، فهو رفع درجات!!

ولعل الأهم من هذا التفصيل كله أن يقال: إن الفائدة العملية التي ينبغي للعبد التأمل فيها هي أن كل مصيبة وابتلاء هي له خير وأجر إن هو صبر واحتسب ، وأن كل ابتلاء ومصيبة هي له سوء وشر إن جزع وتسخط ، فإن وطَّن نفسه على تحمل المصائب ، والرضا عن الله بقضائه ، فلا يضره بعد ذلك إن علم سبب البلاء أو لم

يعلمه ، بل الأَوْلى به دائما أن يتَّهِم نفسه بالذنب والتقصير ، ويفتش فيها عن خلل أو زلل ، فكلنا ذوو خطأ ، وأينا لم يفرط في جنب الله تعالى ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أصاب المسلمين يوم أحد بمقتلة عظيمة ، وهم أصحاب النبي ،ﷺ: ، وخير البشر بعد الرسل والأنبياء ، بسبب مخالفةِ أمرِ النبي ،ﷺ: ، فكيف يظن المرء بعد ذلك في نفسه استحقاق رفعة الدرجات في كل ما يصيبه .

وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله – إذا رأى اشتداد الريح وتقلب السماء – يقول: هذا بسبب ذنوبي، لو خرجت من بينكم ما أصابكم.
فكيف بحالنا نحن المقصرين المذنبين.

ثم أولى من ذلك كله وأهم، أن يحسن العبد الظن بربه دائما، وعلى كل حال؛ فالله سبحانه وتعالى هو أولى بالجميل، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة.
نسأل الله تعالى أن يرحمنا ويغفر لنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، ويأجرنا في مصائبنا، إنه سميع مجيب الدعوات.

قصة الشيخ عبد الحميد كشك مع المعلم عطية

يقول الشيخ في مذكراته: جلست ذات يوم فدخل عليّ " المعلم عطية" قبل المغرب عندما أوشكت الشمس أن تودع الكون، وجلس بجانبي حزينا وسألته عن حزنه فقال لي: أنت السبب!! وسألته خيرا.

فقال: لقد وصيتنا بأداء صلاة الفجر ولما عدت وجدت القفل قد كسر وقد أخذ اللص كل محتويات الغرفة، وهذه أول مرة أصاب بمثل هذا!! أبعد ما تبت إلى الله يصيبني هذا الذي أصابني؟!

وكان هذا الرجل يعمل بائعا للسمك ويقيم في الغرفة وحده؛ ولابد أن يكون الجواب منطقيا ومقنعا فقلت له: وهل هذا يدعو إلى أن تحزن؟

إن الإنسان عندما يتقدم للعمل بإحدى الوظائف لا يستلم عمله إلا بعد أن يقدم مسوغات التعيين وأنت اليوم قد تقدمت للعمل في ساحة الرحمن جل جلاله فلابد من مسوغات التعيين وها أنت ذا قد قدمتها بصبرك على البلاء، فكن قرير العين مطمئن القلب **فقد قال صلي الله عليه وسلم:" ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه "**

ورضي الرجل بقضاء الله بعد ما أنزل الله برد السكينة على قلبه وأصبح من أوتاد المسجد الذين ما أذن لمؤذن للصلاة إلا وهم داخلها لا تفوتهم تكبيرة الإحرام وراء الإمام.

الخلاصة:

1. الدنيا دار ابتلاء واختبار، وليست دار نعيم دائم أو راحة خالصة.
2. النعم والمصائب كلاهما امتحان؛ فالعطاء امتحان بالشكر، والمنع امتحان بالصبر.
3. كل ما يملكه الإنسان من مال وصحة وأهل وأمن هو نعمة تستوجب الشكر واستعمالها في طاعة الله.
4. حقيقة العبودية أن يثبت المؤمن على طاعة الله في السراء والضراء، لا أن يعبده عند الرخاء فقط.
5. شدة البلاء ليست دليلًا على غضب الله؛ فقد تكون علامة على قوة الإيمان، أو سببًا لتكفير الخطايا ورفع الدرجات.
6. النجاح في امتحان البلاء يكون بالصبر والاحتساب وحسن الظن بالله، والفشل فيه يكون بالجزع والتسخط والاعتراض.
7. عبادة الله طلبًا للمنافع الدنيوية وحدها دليل على ضعف الإيمان؛ فالمؤمن لا يترك دينه إذا تأخر عنه الرزق أو أصابته الشدة.
8. ما يصيب المؤمن من مرض أو تعب أو حزن أو همّ يكون سببًا لتكفير سيئاته إذا صبر واحتسب.
9. من ثمرات الصبر على البلاء: رحمة الله، وهدايته، وتكفير الخطايا، ورفع الدرجات.
10. الابتلاء يكشف حقيقة الإنسان ومقدار صدق إيمانه؛ فالناس مستورون في العافية، وتظهر معادنهم عند الشدائد.
11. من حُسن التعامل مع المصيبة أن يتذكر العبد النعم الباقية، وألا ينشغل بالنعم التي فقدها وحدها.

12. وقد يكون البلاء للمؤمن الصالح رفعةً لدرجاته وإيصالًا له إلى منزلة لم يبلغها بعمله.

13. الشكوى المذمومة هي التي تتضمن التسخط والاعتراض على الله، أما طلب المساعدة أو الإخبار بالألم من غير اعتراض فلا ينافي الصبر.

14. على العبد أن يجمع بين محاسبة نفسه وحسن الظن بربه؛ فيتهم نفسه بالتقصير، ويرجو رحمة الله وحكمته.

15. التوبة لا تعني انقطاع الابتلاء؛ فقد يُبتلى التائب لتثبيت صدقه، وتطهيره من ذنوبه، ورفع منزلته.

16. الخلاصة العملية: كل بلاء يمكن أن يصير خيرًا إذا قوبل بالصبر والاحتساب، وقد يصير شرًّا إذا قوبل بالجزع والسخط.

****

الإنسان في القرآن

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

[سورة الأحزاب:72]

11- ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

[سورة الأحزاب:72]

قال تعالى :﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]

معنى الآية الكريمة

هذه الآية الكريمة من أعظم آيات القرآن بيانًا لحقيقة الإنسان ومكانته ومسؤوليته؛ فهي تكشف أن حياة الإنسان ليست عبثًا، وأن ما منحه الله من عقل وإرادة وقدرة لم يكن تشريفًا مجردًا، بل هو تشريف تصحبه مسؤولية، وحرية يعقبها حساب، واختيار تترتب عليه الجنة أو النار.

قوله: (إِنَّا) صُدِّرت الجملة بنون العظمة، تنبيهًا إلى عظمة الأمر وعظمة مَن عرض الأمانة، فليست الأمانة عقدًا بين الإنسان ومخلوق مثله، وإنما هي عهد بين العبد وربه، ولذلك كان شأنها عظيمًا وحسابها دقيقًا.

(عَرَضْنَا) العرض هو إظهار الشيء وبيانه ليُنظر فيه ويُقبل أو يُترك.

والمعنى أن الله بيّن لهذه المخلوقات شأن الأمانة وما يترتب على حملها من ثواب عند أدائها وعقاب عند تضييعها؛ فالعرض كان عرض تخيير، لا إلزام؛ ولذلك لم يكن امتناع السماوات والأرض والجبال معصية، بل كان خوفًا من عدم الوفاء بحق الأمانة.

(الْأَمَانَةَ) الأمانة ضد الخيانة، وهي ما يُؤتمن عليه الإنسان ويُطلب حفظه ورعايته وأداؤه.

والمراد بالأمانة هنا: كل ما ائتمن الله عليه الإنسان من عقيدة وعبادة وتكليف وحقوق، مع ما يترتب على أدائه من الثواب وعلى تضييعه من العقاب.

فالأمانة تشمل حقوق الله وحقوق الخلق، وتشمل أعمال الظاهر وأعمال القلوب، وتشمل ما يفعله الإنسان أمام الناس وما يفعله في خلوته.

وسمى سبحانه ما كلفنا به أمانة، لأن هذه التكاليف حقوق أمرنا سبحانه بها، وائتمننا عليها، وأوجب علينا مراعاتها والمحافظة عليها، وأداءها بدون إخلال بشيء منها.

قوله: (عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا) خصَّ الله هذه المخلوقات بالذكر لعظمها وضخامتها وشدتها، فإذا كانت هذه المخلوقات الهائلة قد خافت من حمل الأمانة، فكيف بالإنسان الضعيف؟

قوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ الإباء هو الامتناع، وليس المراد أن السماوات والأرض والجبال عصت أمر الله؛ لأن العرض كان عرض اختيار، ولم يكن أمرًا ملزمًا؛ وإنما امتنعت خوفًا من عدم الوفاء بحقها.

فالفرق كبير بين :إباء الاستكبار والعصيان، كإباء إبليس السجود لآدم، وإباء الخوف والإشفاق، كما في هذه الآية .

فإباء هذه المخلوقات كان صادرًا عن معرفة بعظم المسؤولية، لا عن استهانة بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الإشفاق هو الخوف المصحوب بالحذر والعناية، فلم ترفض هذه المخلوقات الأمانة استخفافًا بها، وإنما خافت عاقبة التقصير فيها، وفي الجمع بين ﴿فَأَبَيْنَ﴾ و ﴿أَشْفَقْنَ﴾ بيان أن امتناعهن لم يكن عن كبر، وإنما كان عن خوف وتعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ الحمل هنا يعني القبول والالتزام والقيام بالمسؤولية.

والمراد بالإنسان يحتمل معنيين :آدم عليه السلام باعتباره أبا البشر وأول من تلقى التكليف، أو جنس الإنسان، باعتبار أن ذريته داخلة في التكليف والمسؤولية .

وحمل الإنسان للأمانة ليس ذمًّا في ذاته؛ لأن من حملها وأداها صار من المؤمنين الصالحين، وإنما الذم لمن حملها ثم خانها أو ضيعها.

هل هو عرض حقيقي أم مجازي؟ قولان للعلماء:

القول الأول / أنه عرض حقيقي:

من العلماء من يرى أن الكلام على حقيقته، وأن الله – تعالى – قد عرض هذه التكاليف الشرعية المعبر عنها بالأمانة، على السماوات والأرض والجبال عرض

تخيير لا تحتيم، وأن الله خاطبها: إنك إن قمت بها وأدَّيتِهَا على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقومي بها، ولم تؤديها فعليك العقاب؛ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا لثقلها وضخامتها.

واستدلوا بدليلين:

الأول: أنه لا مانع أن يخلق الله في هذه المخلوقات العظيمة الإدراك لخطابه عز وجل بدليل قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت: 11]، ولكن هذا الإدراك والنطق لا يعلمه إلا هو سبحانه ومما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ [الإسراء: 44]

الثاني: ما رواه الترمذي عن النبي، لما قرأ "يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا " قال: (أتدرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن أخبارها يوم تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول – أي الأرض -: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها)

القول الثاني أنه عرض مجازي:

قالوا إن العرض كان مجازيا لاستحالة تكليف الجماد فضلا عن مخاطبتها، وقالوا: إن العرض في هذه الآية ضرب مثل، أي أن السماوات والأرض على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب، أي أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السماوات والأرض والجبال، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل.

وهذا كقوله: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر: 21]

والراجح لدي: أن حمل الكلام على الحقيقة أولى بالقبول، لأنه ما دام لم يوجد مانع يمنع منه، فلا داعي لصرفه عن ذلك.

ومما لا شك أن قدرة الله – تعالى – لا يعجزها أن تخلق في السماوات والأرض والجبال إدراكا وتمييزا ونطقا لا يعلمه إلا هو سبحانه.

لماذا وصف الإنسان بالظلم والجهل؟

قوله: (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) وصف الإنسان بالظلم والجهل بصيغة المبالغة (ظلوم وجهول)[16]

(ظلوما) أي كثير الظلم لنفسه؛ لأنه يقبل المسؤولية ثم يضيعها، ويعرف الأمر ثم يخالفه، ويستعمل نعم الله في معصيته.

وظلمه يشمل :ظلم نفسه بالمعاصي، وظلم غيره بأكل حقوقه، وظلم الأمانة بتضييعها، وأعظم الظلم: الشرك بالله .

معنى (جهولا) أي كثير الجهل: يجهل قدر الأمانة ويجهل ضعف نفسه ويجهل عاقبة الخيانة ويجهل ما يصلحه وما يضره وقد يعلم الحكم، لكنه يتصرف تصرف الجاهل حين لا يعمل بعلمه .

واجتماع الظلم والجهل أصل كثير من الانحرافات؛ فالإنسان قد يفسد بسبب شهوة تظلمه، أو شبهة تضلله.

هل كل إنسان ظلوم جهول؟

الآية تصف أصل الضعف الغالب في جنس الإنسان، وخاصة إذا تُرك لنفسه وهواه، ولا تعني أن كل فرد يبقى متصفًا بالظلم والجهل في جميع أحواله.

فالأنبياء والصديقون والمؤمنون الصالحون أدوا الأمانة بما وفقهم الله إليه.

والآية التالية استثنت المؤمنين من مآل المشركين والمنافقين، فقال تعالى:

---

[16] صيغة المبالغة هي اسم مشتق من الفعل يدل على كثرة وقوع الفعل أو شدته وتكراره، فقولنا: ظالم يعني من وقع منه الظلم، أما ظلوم فمعناه كثير الظلم أو شديده، وقولنا: جاهل يعني من اتصف بالجهل، أما جهول فمعناه كثير الجهل أو شديده، ومن أشهر أوزان صيغة المبالغة: فعّال مثل غفّار، وفعول مثل شكور وظلوم، وفعيل مثل رحيم وسميع، ومِفعال مثل مِقدام، وفَعِل مثل حذِر، فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أن الإنسان كثير الظلم وكثير الجهل إذا لم يهده الله ويوفقه.

﴿**وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ فالإيمان والعلم والتقوى والتوبة تعالج ظلم النفس وجهلها.

، فالضمير في قوله: **(إِنَّهُ)** يعود على بعض أفراد جنس الإنسان، وهم الذين لم يؤدوا حقوق هذه الأمانة التي التزموا بحملها، وهذا لا يمنع أن من عباد الله من قام بهذه الأمانة وأداها كما أمر الله تعالى من أولياء الله المؤمنين، والقرآن يفسر بعضه بعضا فقد ورد استثناء المؤمنين واضحا في سورة العصر **فقال تعالى:** ﴿**وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ **[العصر: 1-3]**

فالإنسان يكون في خسر حينما ينسى لماذا خلق؟ وما هي نهايته؟ وإلى أين المصير؟ فكل الإنسان في خسران إلا هؤلاء القلة هؤلاء الذين ذكر الله صفتهم **"إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ "**

وأيضا كقوله تعالى :﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ **[التين: 4-6]**

ثم قال تعالى في الآية التالية: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ **[الأحزاب: 73]**

فالآيتان معًا تبينان أن الناس تجاه الأمانة ثلاثة أصناف:

1- منافقون، أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا.

2- ومشركون، تركوها ظاهرًا وباطنًا.

3- ومؤمنون، قائمون بها ظاهرًا وباطنًا.

التفسير الإجمالي للآية

يخبر الله تعالى عن عظم شأن التكاليف والحقوق التي ائتمن عليها عباده، وأنه عرض حمل هذه الأمانة، بما فيها من مسؤولية وثواب وعقاب، على السماوات والأرض والجبال، فامتنعت عن قبولها خوفًا من التقصير في أدائها، وقبل الإنسان

حملها مع ضعفه، وكان كثير الظلم لنفسه والجهل بعاقبة ما تحمله، إلا من وفقه الله للإيمان والعلم وأداء الأمانة.

الخلاصة:

1. المقصود بالأمانة جميع ما كلّف الله به الإنسان من عقيدة وعبادة وأخلاق وحقوق وواجبات.
2. عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال كان عرض تخيير، ولذلك لم يكن امتناعها معصية، وامتناعها خوفًا من التقصير وتعظيمًا للمسؤولية، لا استكبارًا على أمر الله.
3. حمل الإنسان للأمانة يعني قبوله التكليف والتزامه القيام بحقوقه وتحمل نتائج اختياره.
4. من ظلم الإنسان أن يضيّع ما تحمّله، ويستعمل نعم الله في معصيته، ويعتدي على حقوق نفسه وحقوق غيره.
5. اجتماع الظلم والجهل أصل لكثير من الانحراف؛ فالظلم ينشأ غالبًا من الشهوة، والجهل ينشأ من الشبهة والضلال.
6. وصف الإنسان بالظلم والجهل لا يعني أن كل إنسان يبقى كذلك، وإنما يصف الضعف الغالب في جنسه إذا لم يهتدِ بالإيمان والعلم والتقوى.
7. الإيمان والعمل الصالح والتوبة والعلم النافع وسائل تعالج ظلم النفس وجهلها، وتعين على أداء الأمانة.
8. الناس تجاه الأمانة ثلاثة أصناف: منافق حملها في الظاهر دون الباطن، ومشرك تركها ظاهرًا وباطنًا، ومؤمن قام بها ظاهرًا وباطنًا.
9. أداء الأمانة لا يتحقق بالمظاهر وحدها، بل لا بد من صدق القلب واستقامة العمل.
10. من ثمرات تدبر الآية أن يراقب المسلم نفسه في السر والعلن، وألا يستهين بأي حق ائتمنه الله عليه.

الإنسان في القرآن

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

[المعارج: 19-21]

12- ﴿إن الإنسان خُلقَ هَلوعاً﴾

[سورة المعارج:19]

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: 19-21]

معنى الآيات الكريمة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ هذا إخبار من الله – تعالى – عن الإنسان، وما جبل عليه من أَخلاق ذميمة، إلا من عصمه الله – سبحانه – ويراد بالإنسان جنس الإنسان.

﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ صفة مشتقة من الهلع بفتحتين، وهو الهلع شدة الجزع والحرص وقلة الصبر، وقد فسَّرته الآيتان التاليتان بأنه الجزع عند نزول الشر، والمنع عند حصول الخير، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ الجزع: أبلغ من الحزن، أَي: إذا مسه الفقر أَو المرض ونحوهما كان مبالغا في الجزع مكثرا منه، لا صبر له على ما نزل به فيتجرعه حزينًا كئيبًا تكاد تتقطع نفسه، وينخلع قلبه.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ يقال: رجل مانع ومناع. أي: بخيل، وهذه الآية مما استعمل فيها الخير بمعنى المال، كما قال تعالى: **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}** [العاديات:8] وكما في قوله تعالى: **{إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ}** [البقرة:180] يعني: إن ترك مالاً.

أَي: كان مبالغًا في البخل والإمساك، لا ينفقه في طاعة، ولا يعرف فيه حق الله، **كما في الحديث عن أَبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ "شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ". أَخرج الإمام أَحمد بسنده**

وقد قدر الله الضعف على الإنسان حتى لا يغتر:

- رزقه العلم، مع بقاء قصوره وجهله بأمور كثيرة؛ فلا يحيط الإنسان بكل شيء علمًا.
- ورزقه القوة، مع ما يعتريه من الضعف.
- ورزقه المال، مع إمكان زواله وافتقاره بعد الغنى، وأن الذي أغنى وعلم وأعطى قادر على أن يأخذ كل ذلك منك، فمن أنت بدون الله؟ من أنت إذا نزع الله عنك رحمته.

وكان من دعاء النبي -ﷺ- " يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين" فحينما يضيق الحال، وتشعر بعدم الاستقرار، والمشاكل والتوتر ارجع إلى الله.

لجوء العبد إلى الله:

والمسلم يلجأ إلى الله تعالى في أحواله كلها؛ في سرَّائه وضرَّائه، وشدَّته ورخائه، وصحته وسقمه، فلا يقتصر ذلك في حال الشدة فقط؛ إذ أن ملازمةُ المسلم للطاعة والدعاء حال الرخاءِ، ومواظبته على ذلك في حال السرَّاء سببٌ عظيمٌ لإجابة الدعاء عند الشدائد والمصائب والكُر َب والبلاء، **وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (مَن سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فلْيُكثِر الدعاءَ في الرخاء)** رواه الترمذي، وسنده حسن

وقد ذمَّ الله في مواطن كثيرة من كتابه العزيز من لا يلجأون إلى الله ولا يُخلصون الدِّين إلاَّ في حال شدَّتهم، أمَّا في حال رخائهم ويُسرهم وسرَّائهم ، فإنَّهم يُعرضون وينسون ما كانوا **عليه، يقول الله تعالى :﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [يونس: 12 ، **ويقول تعالى ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾** [فصلت: 51] " فهي تدلُّ دلالة واضحة على ذمّ مَن لا يعرف الله إلاَّ في حال ضرَّائه وشدَّته، أمَّا في حال رخائه فإنَّه يكون في صدود وإعراض ولَهوٍ وغفلة وعدم إقبال على الله تبارك وتعالى فالواجب على المسلم أن يُقبلَ على الله في أحواله كلِّها في اليُسرِ والعُسرِ،

والرخاءِ والشدّةِ، والغنى والفقرِ، والصحةِ والمرضِ، ومَن تعرَّف إلى الله في الرخاء عرفه الله في الشدَّة، فكان له معيناً وحافظاً ومؤيّداً وناصراً.

ومن هنا جاء الاستثناء في الآيات أن من ينجو من هذا الوصف هم أهل الصلاة فقال تعالى﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج: 22-35]

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: 22] لأن الصلاة هي قرة عين المؤمن، والإنسان عبارة عن جسد وروح، الجسد متصل بالأرض التي منها خلق؛ فحينما نجوع نأكل مما نبت من الأرض، أو على الحيوان الذي تغذى على ما نبت في الأرض، فراحة الإنسان لجسده مرتبطة بالأرض التي منها نشأ.

أما الروح فهي من أمر الله، وحقيقتها مما استأثر الله بعلمه، قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]؛ وهذه الروح بما أنها من الله عز وجل.

فإذا أردت طمأنينة القلب وراحة النفس فقوِّ صلتك بالله تعالى، بذكره وطاعته والصلاة بين يديه، ولا شك أن ضعف الصلة بالله قد يزيد ضيق النفس والاضطراب الروحي، وأن الإيمان والذكر والصلاة من أعظم أسباب السكينة والثبات؛ ومن أكبر أسباب ضيق الصدر وكثرة الهموم والغموم والاكتئاب والقلق والتوتر، والصدمات النفسية، وارتفاع ضغط الدم ...الخ؛ فقدان الاتصال بالله ، والركون إلى المادية والاعتماد على الأسباب التي لا نربطها بالله إنما نربطها بقدراتنا وعلومنا ؛ رغم أن الإنسان دائما ضعيف ، قال تعالى : ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: 28] ضعيفا بمعنى أنه لا يقوم بأمر نفسه كاملا ، فالإنسان بدون الماء يهلك وهكذا بدون الهواء ، الطعام ....الخ ، يصاب بفيروس لا يرى بالعين فيصير جثة هامدة وهو الطويل العريض الذي من

يراه يظن أنه بطل العالم في كمال الأجسام، لكن مع هذا الفيروس تراه شاحبا ضعيفا عليلا.
إذا ركن الإنسان إلى نفسه فقد ركن إلى ضعف ، أما إذا ركن إلى الله فقد ركن إلى قوة .

ولما قرأ النبي ﷺ قول لوط: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80] قال النبي ﷺ: «يرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد». متفق عليه.

والمقصود بالركن الشديد: الله سبحانه وتعالى، وإنما قال لوط عليه السلام ما قال بحسب الأسباب الظاهرة، متمنيًا قوةً من قومه أو عشيرته تمنع عنه أذى المعتدين.

صفات أصحاب الصلاة

الصفة الأولى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 23]

الدائم اسم فاعل من الفعل (دام) فلا يتكاسلون عنها، ولا يفرطون فيها ، بل هم مداومون عليها، ومن أراد أن يستشعر حلاوة الصلاة وأنها معراج المؤمن لربه فلتكن صلاته بخشوع ، اجعلها لقاءك بحبيبك ومولاك فتسعد بالقرب من الله ، وكان النبي -ﷺ:- يقول **(وجعلت قرة عيني في الصلاة)** قرة العين معناها أن الإنسان منا يقلب بصره في الأشياء حوله ،فإذا رأى ما يعجبه يقال : قرت عينه أي استقرت على شيء تحبه فهو يتمنى ألا يزول هذا المشهد الذي يراه ، فقرة العين أي ما تسعد العين به ،ويفرح القلب به ، فقرة عين نبينا -ﷺ:- في الصلاة ، أسعد لحظاته وهوبين يدي الله عز وجل ، وكان يقول لبلال رضي الله عنه : **(أرحنا بها يا بلال)** فإن العبد يقف بين يدي خالقه، فيناجيه ويطلب منه إصلاح قلبه وشأنه كله.

لا أريد أن أقول إن الخشوع سيكون في الصلوات الخمس وكل صلاة تؤديها لكن أليس من المؤسف حقا أن تكون صلواتنا كلها بدون خشوع؟ وتكون الصلاة ثقيلة على النفس، وتنزع نفسك من أعمالك وانشغالاتك نزعا، وتصلي بسرعة، وتنتهي منها بسرعة.

حينما تطيل السجود وتستشعر حلاوة الأنس بالله ومناجاته وقربك منه سبحانه وتعالى فاعلم أن صلاتك كان فيها قرب من الله سبحانه وتعالى.

يقول حذيفة بن اليمان كَانَ النَّبِي ﷺ إذا حزبه (اشتد)أَمرٌ فزع إلى الصلاة.

ومعنى «حزبه أمر»: نزل به أمر شديد أو أهمَّه، وسبب فزعه إلى الصلاة الوقوف بين يدي الملك جل جلاله الذي بيده كل شيء، **كما قال تعالى:** ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1] **وقال تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123]

الصفة الثانية :﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: 24-25]

أي: والذين يجعلون في أموالهم نصيبًا معينا يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله، وإشفاقا على العباد، وقيل: هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة.

واستبعد بعض المفسرين أن يكون المراد بها الزكاة المفروضة ذات الأنصبة والمقادير المعروفة؛ لأن السورة مكية، بينما فُصِّلت مقادير الزكاة في المدينة. وقيل: المراد أصل الزكاة، وقيل: حق سوى الزكاة ألزموه أنفسهم تطوعًا.

فلا يُجزم برد تفسير «الزكاة»؛ لأن أصل الزكاة والإنفاق كان مقررًا في العهد المكي، وإن كانت مقاديرها التفصيلية قد بُيِّنت لاحقًا.

يعطي **(لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)** والمحروم هو الذي يتعفف فلا يسأل الناس شيئًا، وبذلك يخفي أمره فلا يُفطن له، ويُحسب أنه غني، فيحرم، ولا يتصدق عليه بما هو حق له.

الصفة الثالثة: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المعارج: 26]

وهو يوم الجزاء والحساب، والمراد من التصديق به: أن يشغلوا أنفسهم بأداءِ الأعمال الصالحة طمعًا في المثوبة الأخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاءِ، والمراد أنهم يصدقون بيوم الجزاء تصديقًا جازمًا تظهر آثاره في أعمالهم واستعدادهم للقاء الله، فالناس يتفاوتون في قوة اليقين وآثاره.

الصفة الرابعة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾

[المعارج: 27-28] أي: خائفون على أنفسهم أن يمسهم عذاب ربهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة لشعورهم بالتقصير، واستحضارا لعظمة الله وجلاله في قلوبهم،

فالمؤمن لا يأمن مكر الله، ولا ييأس من رحمته، بل يسير إلى الله بين الخوف والرجاء.

الصفة الخامسة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المعارج: 29-31]

أي: أنهم متعففون يحفظون فروجهم بعدم الوقوع في الحرام، ويجعلون قضاء وطرهم مقصورا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: فإنهم لا يلامون على استمتاعهم بأزواجهم أو ما ملكت أيمانهم كما شرع الله.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي فمن تجاوز الحلال الطيب في الزوجات وملك اليمين فقد تعدى حدود ما أحل الله له إلى ما حرمه عليه.

الصفة السادسة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: 32]

أي: أنهم إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، بل كانوا مثالا كاملاً في حفظ الأمانة، ورعاية حقوقها، والوفاء بالوعد، والإخلاص فيه.

الصفة السابعة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: 33]

أي: أنهم يؤدون الشهادة بالقسط، فلا يكتمونها ولا يزيدون فيها، ولا ينقصون عنها، وإنما يقيمونها على وجهها، بدون ميل إلي قريب أو شريف، أو ترجيح لقوي على ضعيف.

الصفة الثامنة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: 34]

أي: يراعون شروطها، ويكملون فرائضها، وسننها، ومستحباتها، وذلك باستعارة الحفظ من الضياع للإتمام والتكميل.

ما الفرق بين قوله (دائمون) وقوله: (يحافظون)؟

1. **الآية الأولى:** {الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ **دَائِمُونَ**} [المعارج: 23].

2. **الآية الثانية:** {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ **يُحَافِظُونَ**} [المعارج: 34].

لقد افتتح الله ذكر صفاتهم بـ "الدوام" على الصلاة، واختتمها بـ "المحافظة" عليها، وهذا التكرار مع اختلاف اللفظ يدل على اختلاف في المعنى والمراد.

وفيما يلي تفصيل الفرق بينهما من عدة وجوه:

دائمون (الدوام): تدل على الاستمرار والثبات على حالة واحدة دون انقطاع، والمراد بها هنا **الاستمرار في أداء الصلاة وعدم قطعها**، أي أنهم لا يصلون وقتاً ويتركون وقتاً، أو يصلون فترة من حياتهم ثم يتركونها، بل هم مستمسكون بها طوال حياتهم.

وفسرها بعض السلف (مثل ابن مسعود وعقبة بن عامر) بأنها تعني **السكون والخشوع في الصلاة**، وعدم الالتفات أو الحركة الكثيرة، من قولهم: "ماء دائم" أي ساكن ورَاكِد.

يحافظون من (المحافظة): وهي مفاعلة من الحفظ، وتدل على بذل الجهد والاهتمام لرعاية الشيء وحمايته من الضياع أو النقص، والمراد بها هنا **مراعاة شروط الصلاة، وأركانها، وسننها، وآدابها، وأوقاتها، ووضوئها**؛ فهم لا يكتفون بمجرد أدائها، بل يهتمون بإتقانها وإتمامها على الوجه الأكمل الذي يرضي الله.

سر الابتداء بـ "دائمون" والختم بـ "يحافظون"

لفظ "المصلين" في بداية السياق **{إِلَّا الْمُصَلِّينَ}** قد يطلق على من يصلي مرة ويترك مرة، فجاءت الصفة الأولى **{الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}** لتبين أنهم مداومون عليها لا يقطعونها، وهذا هو الأساس (أصل الفعل).

ثم بعد ذكر جملة من صفاتهم الحميدة (في الأموال والفروج والأمانات والشهادات)، ثم ختم الصفات بقوله **{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}**، ليرتقي بهم من مجرد المواظبة والدوام (الكم) إلى إتقان الصلاة ومراعاة حدودها وآدابها (الكيف)، فكأن الآية الأولى ذكرت "أصل الصلاة" والآية الأخيرة ذكرت "كمال الصلاة".

الخلاصة: المصلون المفلحون هم الذين يجمعون بين **الدوام** على أصل الصلاة فلا يقطعونها، وبين **المحافظة** على إحسانها، وشروطها، وأركانها، وأوقاتها فلا يضيعونها ولا ينقصونها.

الجزاء: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: 35]

إشارة إلى أَن الموصوفين بالأَوصاف الكريمة التي تنبئ عن علو أَقدارهم عند ربهم، واستحقاقهم لإكرامه وفضله مكرمون في جنات النعيم.

إذن كل صفة للمؤمنين تعالج جانبا من الهلع :

- الصلاة تعالج الجزع .
- الإنفاق يعالج المنع والشح .
- الإيمان بالآخرة يعالج الغفلة .
- الخوف من العذاب يعالج الأمن والغرور .
- العفة تعالج الشهوة .
- الأمانة والشهادة تعالجان الأنانية والظلم .

الخلاصة:

1. خلق الإنسان وفي طبيعته ضعفٌ وهلع، إلا من عصمه الله بالإيمان والطاعة.
2. الهلع هو شدة الحرص والخوف، ويظهر في صورتين: شدة الجزع عند نزول الشر، وشدة المنع والبخل عند حصول الخير.
3. جعل الله مع علم الإنسان جهلًا، ومع قوته ضعفًا، ومع غناه فقرًا؛ حتى يعرف قدره ولا يغتر بنفسه.
4. الواجب اللجوء إلى الله في الرخاء والشدة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، لا عند نزول المصائب وحدها.

5.من ركن إلى نفسه فقد ركن إلى ضعف، ومن توكل على الله فقد أوى إلى ركن شديد.

6.الصلاة أعظم ما يعالج هلع النفس؛ لأنها تصل الروح بخالقها، وتمنح القلب السكينة والثبات.

7.أول صفات الناجين المداومة على الصلاة، فلا يؤدونها حينًا ويتركونها حينًا، بل يثبتون عليها طوال حياتهم.

8.من صفات المؤمنين تخصيص حق من أموالهم للفقراء والمحتاجين، سواء أكانوا سائلين أم متعففين لا يسألون الناس.

9.التصديق الحقيقي بيوم الدين يظهر أثره في الأعمال الصالحة والاستعداد للحساب والجزاء.

10.المؤمن يخاف عذاب الله ولا يغتر بعمله؛ لاستشعاره تقصيره وعظمة ربه، فيجمع بين الرجاء والخوف.

11.من صفات أهل الإيمان حفظ الفروج، والتعفف عن الحرام، وعدم تجاوز الحدود التي شرعها الله.

12.حفظ الأمانات والوفاء بالعهود من الأخلاق الأساسية التي تميز المؤمن الصادق.

13.يجب أداء الشهادة بالعدل، من غير كتمان أو تحريف أو محاباة لقريب أو قوي أو صاحب مكانة.

14.افتتح الله صفات المؤمنين بالصلاة وختمها بالصلاة؛ مما يدل على عظيم منزلتها وأثرها في إصلاح الأخلاق والسلوك.

15.الدوام على الصلاة يعني استمرار أدائها وعدم تركها، أما المحافظة عليها فتعني مراعاة أوقاتها وشروطها وأركانها وآدابها وإتمامها على الوجه المطلوب.

16.جزاء المتصفين بهذه الصفات هو الإكرام في جنات النعيم.

الإنسان في القرآن

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

[سورة الانفطار:6]

13- ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

[سورة الانفطار:6]

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8]

معنى الآيات الكريمة

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ الخطاب لجميع بني الإنسان.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ما الذي غر الإنسان بربه حتى عصاه؟ وردت عدة أقوال في التفسير ألخصها كما يلي:

1- غره جهله بالله سبحانه، فلو علم الإنسان عظمة الله وقدرته لما عصاه.

2- غره شيطانه المسلط عليه.

3- غرته نفسه الأمارة بالسوء واتباعه للهوى.

4- غره كرم الله عز وجل وإمهاله وحلمه.

5- **وقال ابن القيم**: "غره بربه الغرور (بفتح الغين) وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه، وأتي سبحانه بلفظ الكريم وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به" [17]

(الكريم) والكريم -سبحانه- هو كثير الخير، الجواد المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه، الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، فالكريم اسم جامعٌ لكل ما يُحمد؛ فلا كرم

---

[17] الجواب الكافي 13.

يسمو على كرمه، ولا إنعام يرقى إلى إنعامه، ولا عطاء يوازي عطاءه، فما أكرمه سبحانه، وكل ما في الكون إنما هو من شواهد جوده وإكرامه فهو الذي يعطي بغير حساب، وينعم وإن جحد به الجاحد.

فلا أحد أكرم منه جل جلاله، فكرم كل كريم من كرمه، وهو الذي يبتدئ عباده بالنعم من غير استحقاق، ويحسن إليهم من غير سؤال، وهو كريم في عفوه حتى يبدّل سيئات التائبين حسنات، فهو الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، ولا ينقطع سخاؤه، عمَّ بعطائه وإحسانه المؤمنَ والكافرَ، والمطيع والعاصي

قال ابن كثير: "لأنه إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور مع أنه قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام حسن المنظر والهيئة." [18]

(يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم)

ظن بعضهم أن ذكر اسم الله «الكريم» جاء لإرشاد المذنب إلى الجواب ليعتذر قائلاً: «غرني كرمك»، وقد رد المحققون من المفسرين ذلك، مثل ابن كثير وابن القيم والقرطبي؛ مبيّنين أن الآية سيقت مساق التهديد والتوبيخ الشديد؛ لأن العظيم المتفضل بإحسانه حقه أن يُطاع ويُشكر ويُستحيا منه، لا أن يُتجرأ على معصيته بحجة كرمه.

أما مقولة الفضيل بن عياض لما سئل: ماذا يقول لو سئل: مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟ قال: «غرني ستورك المرخاة» فقد بيّن العلماء أن هذا الكلام قيل على وجه الاعتراف بالذنب والندم على الخديعة بحلم الله وإمهاله، وليس على سبيل الاعتذار والاتكال المذموم.

وفي هذا أنشد ابن السماك رحمه الله:

يَا كَاتِمَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحِي ... وَاللهُ فِي الْخَلْوَةِ ثَانِيكَا

غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ ... وَسَتْرُهُ طُولَ مَسَاوِيكَا

---

[18] تفسير ابن كثير ج4/ص482

فالمقصود من السؤال هنا التوبيخ والتبكيت للعبد من الله، أي ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق، وكيف اجترأت عليه، ولم تخفه، فأضعت ما وجب عليك؟

ما الذي غرك حتى تجاوزت حدود الله؟ فحلم الله على العبد في إمهاله، ولو شاء الله لعاجَلَه بالعقوبة... أهي الدنيا؟ أما كنت تعلم أنها دار فناء؟ وقد فنيت !أهي الشهوات؟ أما تعلم أنها إلى زوال؟ وقد زالت!

أم هو الشيطان؟ أما علمت أنه لك عدو مبين؟ إذن ما الذي خدعك؟

إنها لآية عظيمة وتذكرة بينة لمن وعاها!!!فحلم الله تعالى على من عصاه واسع، ولولا حلمه لهلك الناس كلهم كما قال تعالى :﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دابة وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**﴾ **[فاطر: 45]**

الإمهال قد يكون رحمة وقد يكون استدراجًا

تأخر العقوبة لا يعني أن الله راضٍ عن العبد؛ فقد يكون الإمهال فرصة للتوبة، وقد يكون استدراجًا لمن أصرّ وأعرض، كما قال تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ **[الأعراف: 182-183]**

فعلى المؤمن أن يقابل الستر بالتوبة، والإمهال بالرجوع، والنعم بالشكر.

من صور الاغترار:

1. الاغترار بالصحة والشباب، وكأن المرض والموت لا يأتيان فجأة .
2. الاغترار بالمال والمنصب وكثرة الأتباع .
3. الاغترار بالستر، فيظن العاصي أن عدم افتضاحه دليل رضا الله عنه .
4. الاغترار بتأخر العقوبة، مع أن الإمهال ليس إهمالًا .
5. الاغترار ببعض الطاعات مع الإصرار على أكل حقوق العباد أو ظلمهم.

6. الاغترار بالنسب الصالح أو بمكانة الأسرة الدينية .
7. الاغترار بسعة رحمة الله مع ترك التوبة .
8. الاغترار بالعلم والوعظ مع ضعف العمل والإخلاص .

باب التوبة مفتوح للمغتر

مع شدة التوبيخ في الآية، فإنها دعوة للاستيقاظ والعودة إلى الله قبل حلول الأجل، **قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53].**

فمن أدرك أنه اغتر بالستر أو الصحة أو طول الأمل، فطريقه:

1. الاعتراف بالتقصير .
2. الندم على المعصية .
3. الإقلاع عنها .
4. العزم على عدم العودة .
5. رد حقوق العباد .

كيف يتخلص الإنسان من الغرور؟

1. **شكر النعم بالعمل :**استغلال الجوارح التي سوّاها الله وعدلها في طاعته (العين في التدبر، واللسان في الذكر، واليد في الخير).
2. **دوام المراقبة والاستغفار :**التعرّف على الله بأسمائه وصفاته؛ فهو سبحانه كريم واسع المغفرة، وهو كذلك شديد العقاب لمن أصرَّ على الكفر والمعصية ولم يتب.
3. **التأمل في النشأة الأولى :**تذكر أصل الخلقة (من نطفة مذرة) لمنع الكبر والإعجاب بالنفس.

﴿الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي قدر خلقك من نطفة فسواك في بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك.

(فعدلك) أي جعلك معتدلا سوي الخلق، يدل عليه قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ **[التين: 4]**

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ فيها ثلاثة أقوال:

1- إن شاء في صورة إنسان، وإن شاء في صورة حيوان.

2- إن شاء ذكرا، وإن شاء أنثى.

3- في أي صورة أي: ركَّبك في الصورة التي شاءها، وفي الشَّبَه الذي اختاره لك من أب أو أم أو غيرهما.

قال سيد قطب رحمه الله في التفسير: "إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة، تفضلا منه ورعاية ومنة، فقد كان قادرا أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها، فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة.

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين، سوي الخلقة، معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله.
وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي سواء، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء!

وهناك مؤلفات كاملة في وصف كمال التكوين الإنساني العضوي ودقته وإحكامه وليس هنا مجال التوسع الكامل في عرض عجائب هذا التكوين.

ولا يقتصر معنى ﴿**فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾ على اعتدال الجسد؛ بل يدخل في التذكير أيضًا ما وهبه الله للإنسان من العقل والفهم والسمع والبصر والقدرة على البيان والتمييز.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

فكل جارحة نعمة، وشكرها أن تستعمل فيما خُلقت له وأباحه الله.

والآيات لم تذكر خلق الإنسان لمجرد بيان جمال صورته، وإنما لتقيم عليه حجة العبودية والشكر: فالذي خلق وسوّى وعدّل وركّب هو وحده المستحق للعبادة.

ولهذا ينتقل التدبر الصحيح من مشاهدة النعمة إلى معرفة المنعم، ومن معرفة المنعم إلى محبته وتعظيمه وطاعته.

عشر نداءات من الله لعباده:

هذا الحديث يؤكد افتقار العباد إلى ربهم، وغناه عنهم، وسعة عطائه ومغفرته:

عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

1-"يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا.

2-يا عبادي، كلكم ضالٌّ إلاَّ مَن هديته فاستهدوني أهدكم.

3- يا عبادي، كلكم جائع إلاَّ مَن أطعمته فاستطعموني أطعمكم.

4- يا عبادي، كلكم عارٍ إلا مَن كسوته، فاستكسوني أكسكم.

5- يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم.

6- يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

7- يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا.

8- يا عبادي، لو أن أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.

9- يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلَّ إنسان مسألته ما نقص ذلك ممَّا عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أُدخِل البحر.

10- يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمَن وجد خيرًا فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه "صحيح مسلم.

قال سعيد بن عبد العزيز: كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثَا على ركبتيه إعظامًا له.

فالمعنى الإجمالي للآيات:

يا أيها الإنسان الذي تكرم عليك ربك، فخلقك من العدم وأنعم عليك بنعمة الوجود وجعلك في أحسن هيئة وأفضل صورة ما الذي غرك بربك، فجعلك تقصر في حقه، وتتهاون في أمره، ويسوء أدبك في جانبه؟ وهو ربك الكريم، الذي أغدق عليك من كرمه وفضله وبره؛ ومن آثار هذا الإكرام ما منحك من خصائص الإنسانية؛ فعقلتَ وأدركتَ وتميَّزتَ عن كثير من المخلوقات.

فالواجب على جميع العباد من الجن والإنس من الرجال والنساء أن يعبدوا الله وحده، بدعائهم وخوفهم ورجائهم وصلاتهم وصومهم وغير هذا من العبادات كلها لله وحده، وأن يشكروه على نعمه؛ كالصحة والمال والزوج والذرية، وهكذا المرأة تشكر الله على زوجها على ذريتها على صحتها على ما أعطاها من الأرزاق، وهكذا على جميع الجن والإنس الشكر لله والطاعة لله وعبادته ؛ فإن الله ما خلقهم عبثًا ولا سدى؛ إنما خلقهم ليعبدوه وأمرهم بهذا **قال تعالى:** ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56]

فالواجب على الجميع أن يعبدوا الله وحده بالصلاة والصوم والدعاء والاستعانة به وحده، وغير هذا من العبادات كلها لله وحده، كما قال سبحانه: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة: 5] فعلى جميع العباد أن يعبدوا الله ويتقوه، ويمتثلوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه، وينتهوا عن نواهيه فلا يعصوه جل وعلا وعليهم أن يشكروا نعمه فيصلوا شكرها بطاعته، ومن شكرها طاعتهم لله، وترك معصيته.

الخلاصة:

1. قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ سؤال توبيخ وتقريع للإنسان على جرأته على المعصية مع كثرة نعم الله عليه.

2. من أعظم أسباب الاغترار: الجهل بالله، واتباع الشيطان، وطاعة النفس الأمارة بالسوء، والاستسلام للهوى، والاغترار بإمهال الله وستره.

3. ذكر اسم الله «الكريم» ليس حجة للمذنب، بل تذكير بأن كرم الله وإحسانه يوجبان شكره وطاعته والاستحياء منه.

4. لا يجوز للعبد أن يغتر بحلم الله وتأخير العقوبة؛ فالإمهال فرصة للتوبة وليس دليلًا على الرضا عن المعصية.

5. الله سبحانه هو الكريم كامل الكرم، كثير الخير، واسع العطاء، الذي عمَّ إحسانه المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي.

6. الدنيا وشهواتها زائلة، والشيطان عدوٌّ مبين؛ فلا يصح أن يجعلها الإنسان سببًا للغفلة عن الله والدار الآخرة.

7. تذكُّر ضعف الإنسان وأصله ومآله يزيل عنه الكبر والغرور؛ فقد خُلق من نطفة، وهو مفتقر إلى الله في جميع أحواله.

8. قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ يذكّر الإنسان بنعمة الخلق، وتسوية أعضائه، واعتدال صورته، وإحكام تكوينه.

9. قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ يدل على كمال مشيئة الله وقدرته في تشكيل الإنسان وتحديد جنسه وصفاته وشَبَهه.

10. التقوى لا تزيد في ملك الله، والفجور لا ينقص منه؛ وإنما تعود ثمرة الطاعة أو عاقبة المعصية إلى الإنسان نفسه.

11. من وسائل النجاة من الغرور: معرفة الله بأسمائه وصفاته، ودوام مراقبته، وكثرة الاستغفار والتوبة.

12. الجمع بين الرجاء والخوف واجب؛ فالله كريم واسع المغفرة، لكنه شديد العقاب لمن أصرَّ على المعصية واستكبر.

الإنسان في القرآن

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ
كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾

[الانشقاق: 6]

14- ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]

هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات تصويرًا لحقيقة حياة الإنسان ومصيره؛ فقد لخّصت رحلة الإنسان كلها في كلمات قليلة: بدايةً من كدحه في الدنيا، ومرورًا بتعبه وتقلب أحواله، وانتهاءً بلقاء ربه ومجازاته على أعماله.

إنها آية تهدم وهم الاستقرار الدائم في الدنيا، وتوقظ الغافل، وتواسي المتعب، وتحذر العاصي، وتحث المؤمن على أن يجعل كدحه فيما ينفعه عند الله؛ لأن كل إنسان كادح، ولكن الفرق العظيم بين الناس إنما يكون في طبيعة هذا الكدح، والعمل الذي يقدمونه، والمصير الذي ينتهون إليه بعد لقاء الله.

سياق الآية في سورة الانشقاق

قال الله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1-5]

افتتحت السورة بمشاهد عظيمة من مشاهد القيامة:

1. انشقاق السماء وانفطار نظامها، وامتثالها لأمر الله.
2. مدّ الأرض وتسويتها، وإخراج ما في جوفها من الموتى والكنوز.
3. خضوع الكون كله لأمر ربه.

وبعد تصوير هذه التحولات الكونية الهائلة، جاء الخطاب للإنسان ليقال له: كما أن السماء والأرض صائرتان إلى أمر الله، فأنت كذلك صائر إلى ربك، ولن تخرج عن سلطانه أو تفلت من حسابه.

فالكون كله خاضع لله، والإنسان راجع إليه، ولذلك جاءت الآية بعد مشاهد القيامة مباشرة؛ لتربط حركة الإنسان في الدنيا بمصيره في الآخرة.

تفسير الآية الكريمة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ هذا نداء عام يشمل كل إنسان: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والغني والفقير، والرئيس والمرؤوس.

ولم يقل: يا أيها المؤمن؛ لأن الكدح إلى الله والوقوف بين يديه مصير البشرية كلها، **قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 93-95]**

وفي النداء تنبيه وإيقاظ؛ كأن الإنسان غافل منشغل، فيُنادى ليُقال له: انتبه إلى حقيقتك، واعرف طريقك، واستعد لنهايتك.

وفي وصفه بـ«الإنسان» تذكير له بضعفه وفقره وحاجته إلى خالقه؛ فلا ينبغي له أن يغتر بقوته أو ماله أو جاهه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾ جاءت «إنَّ» للتوكيد؛ لأن الإنسان قد يعيش كأنه باقٍ في الدنيا، وقد تغره الصحة والشباب والمال، فيحتاج إلى تأكيد الحقيقة التي ينساها:

أنت حتمًا في رحلة إلى الله، شئت أم أبيت، وشعرت بذلك أم غفلت عنه.

فالآية لا تتحدث عن أمر محتمل، بل عن حقيقة يقينية لا يستطيع أحد الهروب منها.

قوله تعالى: ﴿كَادِحٌ﴾ الكدح في اللغة هو السعي والعمل المصحوبان بالمشقة والتعب.

ويقال: كدح الإنسان في عمله، إذا بذل فيه جهده وعانى شدته.

فحياة الإنسان ليست سكونًا، وإنما هي حركة متواصلة:

- كدح في طلب الرزق.
- وكدح في تحصيل العلم.
- وكدح في تربية الأولاد.
- وكدح في مقاومة المرض.

- وكدح في مواجهة الهموم.
- وكدح في الطاعة أو المعصية.
- وكدح في مقاومة النفس والهوى والشيطان.

حتى الراحة التي يطلبها الإنسان تحتاج إلى كدح؛ فهو يتعب ليحصل على المال، ثم ينفق المال ليحصل على الراحة، وقد لا يدرك منها إلا القليل.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4] أي: في تعب ومشقة ومكابدة منذ ولادته إلى وفاته، فالآية تقرر أن التعب من طبيعة هذه الحياة، وأن الدنيا لم تُخلق لتكون دار راحة كاملة؛ وإنما الراحة التامة في الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ لم يقل: «**كادح في الدنيا**»، بل قال: ﴿**إِلَى رَبِّكَ**﴾؛ لأن حركة الإنسان كلها تتجه في النهاية إلى الله، وكل يوم يمر يقربه من لقائه.

فالإنسان يظن أنه يسير إلى الوظيفة أو المال أو الزواج أو المنصب، ولكنه في الحقيقة يسير إلى أجله، ومن أجله إلى قبره، ومن قبره إلى بعثه، ومن بعثه إلى موقفه بين يدي ربه.

واختيار لفظ ﴿**رَبِّكَ**﴾ يحمل معاني عظيمة؛ فهو سبحانه الذي :خلقك ورباك بنعمه، ورزقك، ودبر أمرك، وأمهلك، وأرسل إليك الرسل، وأنزل إليك الكتب، ثم ترجع إليه فيحاسبك بعدله وفضله.

قوله تعالى: ﴿كَدْحًا﴾ جاء المصدر ﴿**كَدْحًا**﴾ لتأكيد معنى الكدح؛ أي إن كدحك كدح حقيقي مؤكد، لا ينفك عنك، وفيه تصوير لاستمرار التعب والسعي؛ فالإنسان ينتقل من مرحلة إلى مرحلة: **﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: 19]**

ينتقل من ضعف الطفولة إلى قوة الشباب، ثم إلى ضعف الشيخوخة، ومن صحة إلى مرض، ومن فرح إلى حزن، ومن سعة إلى ضيق، حتى تنتهي الرحلة بلقاء الله.

قوله تعالى: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ والفاء تفيد ترتب اللقاء على انقضاء رحلة الكدح؛ فمهما امتد سعي الإنسان، فإن نهايته أن يلقى ربه، ويلقى عمله وجزاءه.

وقد ذكر المفسرون في الضمير في قوله: ﴿**فَمُلَاقِيهِ**﴾ معنيين متلازمين:

1. أنك ملاقٍ ربك، أي واقف بين يديه للحساب والجزاء.
2. أنك ملاقٍ عملك وكدحك، أي ستجد ما عملته حاضرًا أمامك.

ولا تعارض بين المعنيين؛ فالإنسان يلقى ربه، ويلقى عنده جزاء عمله، **قال تعالى:**

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30].

هذه الآية فيها مواساة للمؤمن

فالآية لا تدعو الإنسان إلى ترك الدنيا ولا إلى الاستسلام للتعب، وإنما تدعوه إلى تصحيح وجهة عمله، وإخلاص قصده، والاستعداد للقاء ربه، وما دام الكدح لازمًا، فالعاقل من بذله فيما يبقى نفعه، ولم يبدد عمره فيما يكون عليه حسرة يوم القيامة.

وفيها مواساة عظيمة لكل إنسان أنهكه التعب:

فهي تقول للمريض: ألمك محسوب عند الله.

وتقول للمظلوم: ستلقى ربًا بصيرًا لا تضيع عنده الحقوق.

وتقول للأم التي تتعب في تربية أبنائها: لن يضيع كدحك إذا أخلصتِ لله.

وتقول للعامل الذي يتحرى الحلال: تعبك محفوظ.

وتقول للداعية الذي لا يرى ثمرة سريعة: عليك السعي، والنتائج بيد الله.

وتقول للتائب الذي يجاهد نفسه: كل خطوة إلى الله معلومة ومكتوبة.

لكن لا بد أن يكون الكدح على الإيمان والإخلاص والاستقامة؛ فليس مجرد الألم دليلًا على رضا الله، وإنما العبرة بكيفية التعامل معه وبالطريق الذي يسلكه الإنسان.

حقيقة كدح الإنسان

كل إنسان كادح؛ فالمؤمن يتعب، والكافر يتعب، والطائع يجاهد نفسه، والعاصي يبذل ماله وجهده للوصول إلى شهوته، لكن الفرق بين الناس ليس في وجود التعب؛ وإنما في ثمرة هذا التعب ومآله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: 4] فالناس جميعًا يسعون، ولكن سعيهم مختلف :إنسان يسعى لإرضاء الله، وآخر يسعى لإرضاء نفسه، وثالث يسعى وراء المال، ورابع يسعى وراء الشهرة، وخامس يسعى في الإفساد والعدوان، والسعيد هو الذي يجعل كدحه في الطريق الذي ينفعه حين يلقى الله.

قال تعالى: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 18-19]**

فالسعي المقبول يحتاج إلى ثلاثة أمور:

1. الإيمان والإخلاص لله.
2. إرادة الآخرة.
3. السعي الصحيح الموافق للشرع.

أنواع الكدح

النوع الأول: الكدح في طاعة الله

وهو كدح المؤمن في المحافظة على الصلاة، وطلب العلم، وبر الوالدين، وتربية الأبناء، وكسب الحلال، والدعوة إلى الله، والصبر على البلاء.

وهذا الكدح قد يكون شاقًا في بدايته، لكنه ينتهي إلى الراحة والسعادة، قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69].**

وقال النبي ﷺ: (حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات) رواه مسلم.

فالصلاة تحتاج إلى مجاهدة، وغض البصر يحتاج إلى مجاهدة، وترك الحرام يحتاج إلى مجاهدة، لكن تعب الطاعة قصير، ونعيمها دائم.

النوع الثاني: الكدح في طلب الدنيا المباح

السعي في طلب الرزق، والقيام بمصالح الأسرة، ومعالجة المريض، وبناء المجتمع؛ كل ذلك قد يتحول إلى عبادة إذا صلحت النية وكان العمل مشروعًا.

فالمشكلة ليست في العمل للدنيا، وإنما في أن تتحول الدنيا إلى أكبر هم الإنسان، أو أن يطلبها من الحرام، أو أن تشغله عن حق الله.

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]

النوع الثالث: الكدح في المعصية

قد يتعب الإنسان في تحصيل الحرام، ويسهر من أجل الشهوة، ويخطط للغش والظلم، وينفق ماله وصحته في معصية الله، وهذا أشد أنواع الخسران؛ لأنه جمع بين تعب الدنيا وعذاب الآخرة، **قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 103-104]** فليس كل نشاط محمودًا، ولا كل تعب مأجورًا، وإنما العبرة بموافقة العمل لشرع الله وإخلاصه له.

نتيجة الكدح يوم القيامة

بيّنت الآيات التالية أن الناس بعد لقاء الله فريقان:

الفريق الأول: من أوتي كتابه بيمينه:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 7-9] وهذا هو المؤمن الذي كدح في طاعة الله، وإذا أذنب تاب، وإذا قصر استغفر، فكانت خاتمة كدحه:

- استلام الكتاب باليمين.

- الحساب اليسير.
- النجاة من العذاب.
- الرجوع إلى أهله في الجنة مسرورًا.

والحساب اليسير هو العرض؛ تُعرض عليه أعماله، ثم يتجاوز الله عنه.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ليس أحدٌ يُحاسَب يوم القيامة إلا هلك». قالت: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّب». متفق عليه

الفريق الثاني: من أوتي كتابه وراء ظهره

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: 10-15]

كان فرحه في الدنيا فرح غفلة وبطر، وظن أنه لن يرجع إلى الله، فنسي الحساب، وأطلق نفسه في الشهوات والظلم.

وليس المذموم مجرد الفرح مع الأهل؛ وإنما المذموم الفرح المصحوب بالغفلة عن الله والاغترار بالدنيا وإنكار الرجوع إليه.

أسئلة للمحاسبة والتأمل

ينبغي لكل إنسان أن يسأل نفسه:

1. إلى أين يتجه كدحي؟
2. ما أكثر شيء استهلك عمري؟
3. هل يغلب على عملي طلب رضا الله أم طلب رضا الناس؟
4. ماذا قدمت ليوم لقائي بربي؟
5. هل في ذمتي حقوق أو مظالم لم أردها؟
6. ما المعصية التي يجب أن أتوب منها اليوم؟

7. ما الطاعة التي ينبغي أن أثبت عليها؟

8. لو كان هذا آخر يوم من عمري، فهل أرضى أن ألقى الله على حالي؟

الخلاصة:

1. **حياة الإنسان رحلة كدح مستمرة؛** فهي قائمة على السعي والتعب ومواجهة المشاق منذ الولادة إلى الوفاة.

2. **الدنيا ليست دار راحة كاملة؛** فالراحة التامة إنما تكون في الجنة، ولذلك ينبغي ألا يجزع الإنسان من أصل المشقة في الحياة.

3. **الفرق بين الناس ليس في وجود التعب، بل في وجهته وثمرته؛** فمنهم من يتعب في الطاعة، ومنهم من يتعب في المباح، ومنهم من يتعب في المعصية.

4. **كل إنسان سيلقى ربه ويلقى عمله؛** فما عمله من خير أو شر سيجده حاضرًا يوم القيامة دون ظلم أو نقصان.

5. **اختيار لفظ ﴿رَبِّكَ﴾ يذكّر برعاية الله للعبد؛** فهو الذي خلقه وربّاه ورزقه وأمهله وهداه، ثم إليه مرجعه وحسابه.

6. **المشكلة ليست في طلب الدنيا، بل في أن تصبح أكبر الهم،** أو تُطلب بالحرام، أو تصرف الإنسان عن آخرته.

7. **ثمرة الكدح الصالح يوم القيامة** :أخذ الكتاب باليمين، والحساب اليسير، والنجاة، والرجوع إلى أهل الجنة مسرورًا.

8. **سبب الخسارة الكبرى هو الغفلة عن الرجوع إلى الله؛** فمن ظن أنه لن يُبعث أطلق نفسه في الشهوات والظلم.

9. **التوبة تصحح مسار الكدح؛** فالمؤمن ليس معصومًا من التقصير، لكنه كلما أذنب تاب، وكلما قصر استغفر وعاد إلى الله.

10. **المؤمن يحوّل المشقة إلى رصيد للآخرة؛** بالصبر والاحتساب وتصحيح النية، فيصبح مرضه وعمله وتربيته لأبنائه وطلبه للحلال أبوابًا للأجر.

11. **العمر هو رأس مال الإنسان الحقيقي؛** ولذلك ينبغي أن يحاسب نفسه: أين ذهب وقته؟ وفيمَ استُهلكت قوته؟

12. **النجاح الحقيقي ليس بكثرة الحركة والإنجاز الدنيوي وحدهما؛** وإنما بأن يكون السعي صحيحًا نافعًا عند لقاء الله.

13. **الآية تدعو إلى محاسبة النفس قبل الحساب؛** بتجديد النية، والثبات على الطاعة، وترك المعصية، ورد الحقوق، والاستعداد للقاء الله.

14. **كل مرحلة من العمر تقرّب الإنسان من نهايته؛** فلا ينبغي أن يغتر بالشباب أو الصحة أو المال أو الجاه.

15. **الخلاصة الجامعة :**ما دام الكدح لا مفر منه، فليكن كدح الإنسان لله، وعلى شرع الله، وفيما يسرّه أن يلقاه يوم يقف بين يدي الله.

****

الإنسان في القرآن

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾

[الفجر: 15-16].

15- ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾

[سورة الفجر:15]

يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾

[الفجر: 15-16].

تكشف هذه الآيات عن فهمٍ خاطئ يقع فيه كثير من الناس؛ إذ يجعلون المال وسعة الرزق دليلًا لازمًا على رضا الله وكرامته، ويجعلون الفقر وضيق الرزق دليلًا على غضب الله وإهانته.

فإذا وسَّع الله على الإنسان في المال، ومنحه الصحة والمنصب والأولاد، قال: **﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾**، وظن أن هذا العطاء دليل قاطع على محبة الله له ورضاه عنه.

وإذا ضيَّق الله عليه رزقه، أو ابتلاه بمرض، أو أخَّر عنه بعض مطالبه، قال: **﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾**، وظن أن الله قد تركه وأذلَّه.

فردَّ الله على هذا التصور الخاطئ بقوله: **﴿كَلَّا﴾**؛ أي: ليس الأمر كما يظن الإنسان؛ فليس مجرد سعة الرزق دليلًا لازمًا على الكرامة، وليس مجرد ضيقه دليلًا لازمًا على الإهانة. وإنما تظهر حقيقة العطاء والمنع في حال العبد مع الله، وما يترتب عليهما من شكر أو كفر، وصبر أو جزع، وطاعة أو معصية.

إن سعة الرزق ابتلاء، وضيقه ابتلاء، والعافية ابتلاء، والمرض ابتلاء، والمنصب ابتلاء، وفقده ابتلاء؛ قال تعالى: **﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾** [الأنبياء: 35].

وتأملوا أن الله تعالى عبَّر عن الحالين بالابتلاء، فقال في حال صاحب النعمة: **﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾**، وقال في حال صاحب الرزق الضيق: **﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾**.

فالغنى ليس راحة خالصة، وإنما هو اختبار: أيشكر صاحبه أم يكفر؟ وهل ينفق أم يبخل؟ وهل يتواضع أم يتكبر؟ وهل يكتسب المال من الحلال أم يجمعه من كل طريق؟

والفقر ليس إهانة خالصة، وإنما هو اختبار كذلك: أيصبر صاحبه أم يجزع؟ وهل يحسن الظن بالله أم يعترض؟ وهل يحفظ دينه أم يبيعه من أجل الدنيا؟

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: 165].

فلم يقل سبحانه: ليكرمكم بما آتاكم، وإنما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾؛ أي: ليختبركم فيما أعطاكم.

وحتى نفهم هذا المعنى بشكل صحيح أركز الحديث على النقاط التالية:

أولًا: المال ليس دليلًا حتميًّا على رضا الله

الرزق بيد الله جل وعلا، فالعطاء عطاؤه، والفضل فضله، وكل شيء بيده سبحانه. ورزق الله لعباده نوعان:

الأول: رزق عام

وهو ما تقوم به الأبدان من الطعام والشراب والكساء والمسكن وسائر متاع الحياة، وهذا يشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر؛ **قال تعالى:﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 6]وقال سبحانه: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20]** وهذا العطاء العام لا يدل بمجرده على رضا الله عمن أعطاه؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب.

الثاني: رزق خاص

وهو رزق القلوب من الإيمان، والهداية، والعلم النافع، والعمل الصالح، والاستقامة على طاعة الله. وهذا هو الرزق الأعظم الذي تتحقق به سعادة الدنيا والآخرة.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب». صححه الألباني.

فليس إعطاء الإنسان المال ومتاع الدنيا دليلًا قاطعًا على رضا الله عنه، كما أن تضييق الرزق عليه ليس دليلًا لازمًا على سخط الله وإهانته له؛ لأن الدنيا دار ابتلاء واختبار، وليست دار الجزاء الكامل.

وقد تكون سعة المال استدراجًا إذا قابلها صاحبها بالغفلة والكفر والإصرار على المعصية، وكم من إنسان كثرت أمواله، لكنها أبعدته عن الصلاة، وأفسدت قلبه، وقطعت رحمه، وجعلته متكبرًا على الخلق!

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: 55].

وكان قارون من أكثر الناس مالًا، حتى قال الله تعالى في وصف خزائنه:**﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: 76]** ومع ذلك لم يكن مكرمًا عند الله؛ لأنه بغى وتكبر، ونسب النعمة إلى علمه وقدرته، فقال: **﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78]** فكانت عاقبته: **﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: 81].**

فالمال إذا أعان العبد على طاعة الله كان نعمة في حقه، وإذا صدَّه عن الله وأفسد قلبه كان فتنة عليه، مهما كثر في يده.

ثانيًا: ضيق الرزق ليس دليلًا على إهانة الله

قد يكون تضييق الرزق على العبد رحمة به؛ فيحفظ الله بذلك دينه، أو يدفع عنه فتنة، أو يطهره من ذنوبه، أو يرفع درجته، أو يرده إليه ردًّا جميلًا.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27].

وقد يمنع الله العبد من شيء طلبه رحمة به، أو يؤخره عنه لحكمة يعلمها سبحانه؛ فقد يريد الإنسان أمرًا يظنه خيرًا له، ويعلم الله أن الخير في صرفه عنه أو تأخيره.

وقد عاش نبينا محمد ﷺ حياة قليلة المتاع، حتى كان يمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ولا توقد في بيوته ﷺ نار، وإنما كان طعامهم التمر والماء، ومع ذلك كان أكرم الخلق على الله.

وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ، فوجده مضطجعًا على حصير قد أثَّر في جنبه، فبكى عمر، وذكر ما فيه كسرى وقيصر من النعيم، فقال له النبي ﷺ: (أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟) متفق عليه.

فهل كان ضيق عيش النبي ﷺ إهانة له؟ حاشا وكلا؛ بل هو سيد ولد آدم، وأكرم الخلق على الله، وصاحب المقام المحمود.

فالكرامة ليست في كثرة ما تملك، وإنما في منزلتك عند الله، واستقامتك على طاعته.

ثالثًا: الكرامة الحقيقية في الإيمان والتقوى

يقوم ميزان كثير من الناس على المال والمظهر والمنصب والنسب، أما ميزان الله فيقوم على الإيمان والتقوى والعمل الصالح؛ **قال تعالى:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].**

وقال النبي ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم). رواه مسلم.

فقد يكون الإنسان فقيرًا، وثيابه بسيطة، ولا يعرفه الناس، ولكنه عند الله عظيم القدر، مستجاب الدعوة؛ **قال النبي ﷺ: (رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه) رواه مسلم.**

وقد يكون الإنسان غنيًّا مشهورًا يعظمه الناس في مجالسهم، ولكنه لا يزن عند الله شيئًا؛ لخلو قلبه من الإيمان والتقوى، أو لإعراضه عن العمل الصالح.

فلا نحكم على الناس من خلال ثيابهم، أو أموالهم، أو سياراتهم، أو مناصبهم؛ ولكن ننظر إلى دينهم، وأخلاقهم، وأمانتهم، وأعمالهم الصالحة.

رابعًا: واجب العبد عند النعمة

من وسَّع الله عليه في الرزق، فواجبه أن يعلم أن النعمة من الله وحده؛ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]

وعليه أن يشكر الله عليها بقلبه ولسانه وجوارحه؛ فيعترف بقلبه بأنها من فضل الله، ويحمده عليها بلسانه، ويستعملها بجوارحه في طاعته.

ومن شكر المال أداء زكاته، والصدقة منه، ومواساة الفقراء، وصلة الأرحام، وقضاء حوائج المحتاجين، وعدم الاستعانة به على معصية الله.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

وليس الشكر أن يقول الإنسان بلسانه: الحمد لله، ثم يستعمل النعمة في الحرام؛ وإنما حقيقة الشكر أن يظهر أثر طاعة الله في استعمال النعمة.

فشكر المال بأداء زكاته والإنفاق منه، وشكر العلم بالعمل به وتعليمه، وشكر الصحة باستعمالها في الطاعة، وشكر المنصب بالعدل وقضاء حوائج الناس.

خامسًا: واجب العبد عند ضيق الرزق

من ضُيِّق عليه رزقه، فلا يقل: إن الله أهانني، ولا يسيء الظن بربه، ولا يقنط من رحمته؛ بل يصبر صبرًا واجبًا، ويسعى إلى مقام الرضا، ويحسن الظن بالله، ويأخذ بالأسباب المشروعة، ويطلب الرزق الحلال، ويوقن أن خزائن الله لا تنفد.

قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22]وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2–3].

وليعلم أن ما عند الله من الأجر أعظم مما فاته من متاع الدنيا، وأن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما كثرت فهي قليلة.

وقال النبي ﷺ :(ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس) . متفق عليه.

فالفقر الحقيقي ليس مجرد قلة المال، وإنما فقر القلب حين يخلو من القناعة والرضا، ويتعلق بما في أيدي الناس، ويغفل عما أنعم الله به عليه.

المؤمن رابح في جميع أحواله

المؤمن رابح في جميع أحواله: إن أصابته نعمة شكر، وإن أصابته شدة صبر؛

قال **رسول الله ﷺ: (عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له). رواه مسلم.**

فالمؤمن بين نعمة تدعوه إلى الشكر، وبلاء يدعوه إلى الصبر، وبين الشكر والصبر يسير العبد إلى الله.

وإذا رأيت من هو أكثر منك مالًا، فلا تحسده، ولا تظن أن الله فضَّله عليك بإطلاق؛ فإنك لا تعلم حقيقة امتحانه، ولا ماذا سيفعل بهذه النعمة.

وإذا قلَّ مالك، فلا تحتقر نفسك، ولا تظن أن منزلتك عند الله قد نقصت؛ فرُبَّ فقير صابر أحب إلى الله من غني غافل، ورُبَّ مريض محتسب أرفع درجة من صحيح مضيع، ورُبَّ عبد مجهول في الأرض معروف في السماء.

وإذا أغناك الله، فلا تتكبر على الفقير؛ فلعله أكرم منك عند الله، وإذا رأيت مبتلًى، فلا تشمت به؛ فإن الأيام تتقلب، والله قادر على أن يغير الأحوال.

من الاعتقاد إلى السلوك

إن الحديث عن المال في سورة الفجر لم يقف عند تصحيح الاعتقاد، بل انتقل إلى تقويم السلوك؛ فقال تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾ [الفجر: 17-20]

فمن علامات النجاح في امتحان المال: إكرام اليتيم، وإطعام المسكين، والحث على مساعدة المحتاجين، وأداء الحقوق، والابتعاد عن الظلم، وأخذ الميراث بحق، وعدم تعلق القلب بالمال تعلقًا يصده عن طاعة الله.

الخلاصة

1. سعة الرزق ليست دليلًا حتميًّا على رضا الله، وضيقه ليس دليلًا لازمًا على إهانة العبد.
2. الغنى والفقر كلاهما ابتلاء؛ فالغني ممتحن بالشكر، والفقير ممتحن بالصبر.
3. الرزق الدنيوي عطاء عام، يناله المؤمن والكافر، فلا يدل بمجرده على محبة الله.
4. رزق الإيمان والهداية والعمل الصالح هو أعظم أنواع الرزق.
5. المال نعمة إذا أعان صاحبه على الطاعة وأداء الحقوق، وقد يصير فتنة إذا أورثه الغفلة والكبر والبخل.
6. قد يكون تضييق الرزق رحمة بالعبد وحفظًا له من فتنة لا تصلح له.
7. الكرامة الحقيقية لا تقاس بالمال والمظهر والمنصب، وإنما بالإيمان والتقوى والعمل الصالح.
8. شكر النعمة يكون بالقلب واللسان والجوارح، وباستعمالها في طاعة الله.
9. واجب العبد عند ضيق الرزق أن يصبر، ويحسن الظن بالله، ويأخذ بالأسباب المشروعة.
10. الغنى الحقيقي غنى النفس وقناعتها، وليس مجرد كثرة الأموال والممتلكات.
11. المؤمن رابح في جميع أحواله؛ يشكر عند السراء، ويصبر عند الضراء.
12. يظهر النجاح في امتحان المال في إكرام اليتيم، وإطعام المسكين، وأداء الحقوق، والبعد عن الظلم.
13. خلاصة الآيتين :ليست الكرامة في كثرة ما تملك، ولا الإهانة في قلة ما تملك، وإنما الكرامة في تقوى الله، والنجاح في شكره عند العطاء والصبر عند المنع.

الإنسان في القرآن

﴿لقد خلقنا

الإنسان في كبد﴾

[سورة البلد:4]

16- ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾

[سورة البلد:4]

قال الله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ" [البلد 4]

افتتحت سورة البلد بقسم اللهُ تعالى بالبلد الحرام مكة فقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 1-4]

تكشف هذه الآية حقيقةً كبرى من حقائق الحياة الإنسانية، وهي أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، لا دار راحة كاملة، وأن النجاة ليست في الفرار من المشقة، بل في توجيه الجهد إلى ما يرضي الله تعالى.

ما معنى كبد في اللغة؟

الكبد هو العضو المعروف في جسم الإنسان، ويضرب به المثل كأطيب ما يطعمه الإنسان، ولذلك قال النبي ﷺ: قبل يوم بدر: " هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها "

والفِلذة هي قطعة اللحم إذا قطعت بالطول والمقصود أنهم جاؤوا بأشرافهم بين يدي القتال.

ويقال: في كبد السماء: أي وسطها تشبيها بكبد الإنسان لكونها في وسط البدن.

وفلانٌ تُضْرب إليه أَكبادُ الإبل: يُرْحَل إليه في طلب العلم وغيره

أَصَابَ كَبِدَ الْحَقِيقَةِ: أَيْ أَصَابَ صُلْبَهَا.

والكبد: المشقة، ونقول فلان يكابد في عمله أي عمله شاق، وتكبد خسارة فادحة، أي أصابته فأوجعته وشقت عليه أمره.

وأَوْلاَدُنَا أَكْبَادُنَا: أي جُزْءٌ مِنَّا وَأَعَزُّ مَا نَمْلِكُ، قال الشاعر– :

وَإِنَّمَا أَوْلاَدُنَا بَيْنَنَا ... أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ.

والمعنى: لقد خلقنا الإنسان في حالٍ من المكابدة والمشقة، فهو يقاسي شدائد الدنيا وتكاليفها، ثم يلقى ما قدَّمه في الآخرة.

والله تعالى لم يخلق الإنسان لمجرد المشقة، وإنما خلقه لعبادته، وجعل الابتلاء وسيلةً لتمييز الصادق من غيره، قال تعالى: ﴿**الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ **[الملك: 2]** فالمشقة ليست هي الغاية، وإنما هي جزء من طريق الاختبار والعبودية.

وَلَا فَرْقَ في ذلكَ بَيْنَ غَنِيٍّ أو فقيرٍ، وَحاكِمٍ أو مَحْكُومٍ، وصالِحٍ وغيرِ صالحٍ؛ فَالكُلُّ يُجَاهِدُ ويُكَابِدُ ويَتْعَبُ، مِنْ أَجْلِ بُلُوغِ الغايةِ التي يَبْتَغِيها، ولا يتساوى الناس في التعامل مع الكَبَد، فالمشقة تقع للمؤمن والكافر، لكنهما يختلفان في تلقيها: المؤمن يصبر ويحتسب ويرجو ثواب الله، والغافل قد يجزع ويسخط، فتزداد مشقته النفسية فوق مشقته الجسدية، كما **قال النبي ﷺ: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير؛ وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له» رواه مسلم.**

والمكابدة قد تكون سببًا في النضج؛ فكثير من الصفات العظيمة لا تظهر إلا عند المشقة؛ فلا يُعرف الصبر إلا عند البلاء، ولا الشجاعة إلا عند الخوف، ولا الكرم إلا عند الحاجة، ولا العفو إلا عند الإساءة. فالمشقات ـ مع الإيمان وحسن التعامل معها ـ تصنع شخصيةً أقوى وأنضج وأرحم بالناس.

مظاهر الكبد في حياة الإنسان:

1-أولُ أَمْرِ هذا الإنسان، أَنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ أباه آدمَ مِنْ طِين، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مُتَسَلْسِلاً، **كما قال تعالى:** ﴿**الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾ **[السجدة: 7-9]**

2-ثم ينتقل من ظلمات الرحم إلى عالم جديد، فيبدأ بالتنفس والرضاعة والتكيف مع الحياة خارج الرحم.

3-ثم يكابد التسنين وما قد يصاحبه من الألم والانزعاج واضطراب النوم.

4-ثم يتدرج في تعلُّم النطق والكلام والتعبير عن حاجاته.

5-ثم يُكابِدُ الفِطامَ، فإنَّ الفطامَ عن اللبنِ شَديدٌ على الطفل .

6-ثم يُكَابِدُ التَعَلُّم، فَيُكابِدُ الدراسةَ ومِشْوارَها الطويل.

7-ثُمَّ يُكابِدُ طَلَبَ الرِّزقِ، لأن العبدَ مأمورٌ بالاكتِساب، وَمَنْهِيٌّ عنِ العَجْزِ والتَكَاسُلِ وتَعْطِيلِ الأسباب.

8-ثم يُكابِدُ الزواجَ وإعفافَ نفسه، وتَحْصِيلا للوَلَدِ والذُرِّيَّةِ.

9-ثم يُكابِدُ النفقةَ عليهِم وعلاجَهَم وتربيتَهُم، والصبرَ على أذاهُم وتعامُلِهِم.

10-وكذلك يُكابدُ الصبرَ على الضَرَّاءِ، والشُكرَ على السَرَّاءِ، ويكابدُ أذَى الناسِ والصبرَ عليه.

11-ويُكابِدُ الصبرَ على الطاعةِ، والصبرَ عن المعصية، لأنه مخلوقٌ لعِبادةِ الله، **وقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: (حُفَّت الجنةُ بالمَكارِه، وحُفَّت النارُ بالشَّهَوات)**

12-ثم يكابد الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وألم الأذنين.

13-ثم بعد ذلك كله يكابد الموت وسكرته، ثم القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، ثم المرور على الصراط الممدود على متن جهنم، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة، وإما في النار.

قال الشاعر:

طُبعتْ على كدرٍ وأنت تريدهـــــــــــا

صفواً من الأقذاء والأكـــــــــــــدار

ومُكلّفُ الأيّام ضـد طباعــهـــــــــــا

مُتطلبٌ في الماء جذوة نـــــــــــار

وتنقسم المكابدة إلى نوعين:

الأول: مكابدة في طاعة الله وطلب الحلال ونفع الناس، وهذه يعقبها الأجر والثواب الجزيل من الله والراحة في دار السعادة الأبدية الجنة، والحياة الطيبة لا تعني انعدام المشكلات؛ فقد يعيش المؤمن حياة طيبة مع وجود المرض أو الفقر أو غيرهما؛ لأن الحياة الطيبة تشمل طمأنينة القلب والرضا بالله وحسن الصلة به، **قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]** فقد يتألم الجسد ويطمئن القلب، وقد تتيسر الدنيا للإنسان ويظل قلبه في قلق واضطراب.

الثاني: مكابدة في المعصية والشهوات والظلم، وهذه تجمع على صاحبها تعب الدنيا وعذاب الآخرة .

ولو كانت الدنيا دار جزاء كامل لما مرض الصالح، ولا تنعّم الظالم، ولكنها دار عمل وامتحان، والآخرة دار الجزاء التام، ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن ينتظر الراحة الكاملة في الدنيا؛ فالراحة الدائمة إنما تكون في الجنة: **﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: 48].**

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير الآية في الظلال: "ثم تفترق الطرق وتتنوع المشاق هذا يكدح بعضلاته، وهذا يكدح بفكره، وهذا يكدح بروحه، وهذا يكدح للقمة العيش وخِرقةِ الكساء، وهذا يكدح ليجعلَ الألفَ ألفينِ وعشرة آلاف، وهذا يكدح لملك أو جاه، وهذا يكدح في سبيل الله، وهذا يكدح لشهوة ونزوة، وهذا يكدح لعقيدة ودعوة، وهذا يكدح إلى النار، وهذا يكدح إلى الجنة.

والكل يحملُ حَملهُ ويَصعدُ الطريقَ كادحًا إلى ربه فيلقاه! وهناك يكون الكبدُ الأكبرُ للأشقياء، وتكون الراحة الكبرى للسعداء.

إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا، تختلف أشكاله وأسبابه، ولكنه هو الكبد في النهاية، فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأَمَرّ في الأُخرى-والعياذ بالله-

وأفلحُ الفالحين من يكدح في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلاتٍ تُنهي عنه كبدَ الحياة، وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله. "أهـ

هل الموت راحة للجميع؟

يعتقد بعض الناس أن بالموت ينتهي الكبدُ والمشقةُ من حياة الإنسان، لكن الحقيقة هي أن مرحلةَ الكبدِ الدنيوي هي التي انتهت فقط، أما الكبدُ الأخروي فإنه يبدأ بموت الإنسان، فيُكابدُ سكراتِ الموت، ثم ما يلاقيه من (سؤال الملكين، وضَغطة القبر، ثم البعثُ والعرضُ على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار.

عن أبي قتادة بن رِبْعيّ الأنصاري رضي الله عنه: أنه كان يحدِّث: أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال: (مُستريحٌ ومُسْتَرَاحٌ منه)، قالوا: يا رسول الله، ما المُستريحُ والمُستَراح منه؟ فقال:(العبد المؤمن يستريح من نصَبِ الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يَستريح منه العبادُ والبلاد والشجَرُ والدوابُّ) أخرجه البخاري ومسلم

فالموتى قسمان:

الأول: مستريح، وهو المؤمن، يَستريحُ مِن نَصَبِ الدنيا وأذاها إلى رحمة الله.

وهذا رسول الله ﷺ لما وَجَدَ مِن كرب الموت ما وَجَد، قالت فاطمة: واكرب أبتاهْ! فقال رسول الله، ﷺ:(لا كرب على أبيك بعد اليوم) [أخرجه ابن ماجه]

وذلك أن الكرب الحقيقي عند المؤمن، ينتهي بنهاية الدنيا وانقطاعه منها؛ وذلك لأنها تحجزه عما بعدها من الفرح والسرور بدخول الجنة.

وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله: متى يجد العبدُ طعم الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة.

والثاني: يُستَراح منه وهو الفاجر، يستريح منه العبادُ والبلاد والشجر والدوابُّ؛ يستريح غيره مِن أذاه وظُلمه، وسوء خُلقه وجَوْرِه، يستريح غيره من فساده الكبير، وشرِّه المستطير، بل لربما استراحت منه الأرضُ بدوابِّها وشجرها؛ لسوء فِعاله، والتي لا تطيقها منه، كتسلُّطِه عليها، وتحميلها ما لا تحتمله، أو إلحاق الأذى بها بأي صورة من صور الأذى.

الاستعانة بالله وطلب العون منه سبحانه:

والمسلم مع هذا الكبد والمشقة يطلب العون من الله تعالى في أمور الدنيا والآخرة، وعليه التبرؤ من حوله وقوته؛ فلا حول ولا قوة له إلا بالله، كما قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123]

وفي وصيته ﷺ لابن عباس: (وإذا استعنت فاستعن بالله) رواه الترمذي.

ومع هذا الكَبَد فإن هذا لا يعني أن الحياة شرٌّ محض، وجود المشقة في الدنيا لا يعني خلوها من النعم والراحة والسرور؛ فقد امتن الله على عباده بنعم ظاهرة وباطنة، **قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: 18].**

فالدنيا دار ابتلاء، لكنها كذلك ميدان للإيمان والعمل الصالح، وفيها من الطيبات والسكينة ما يعين على طاعة الله، فلا يغيب عنا أن الدنيا ليست شرًا محضًا، بل فيها نعم ورحمة وسكينة، وأن الابتلاء قد يكون سببًا لتكفير السيئات ورفع الدرجات، وأن المؤمن يجمع بين الصبر والشكر، وأن الله بشرنا بأن مع العسر يسرًا.

قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: "وأما الاستعانة بالله -عز وجل- دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله -عز وجل-، فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول.

وهذا تحقيق معنى قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله"؛ فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات، كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله -عز وجل-، فمن حقق الاستعانة به في ذلك كله أعانه".

فالله جل جلاله علمنا أن نعبده وحده ونستعين به وحده، وبذلك فإن المؤمن يتعلم أن يستعين بالحي الذي لا يموت، وبالقوي الذي لا يضعف، وبالقاهر الذي لا يخرج

عن أمره أحد، وإذا استعنت بالله سبحانه وتعالى كان الله جل جلاله بجانبك، وهو وحده الذي يستطيع أن يحول ضعفك إلى قوة وَذُلّك الي عز.

فالعاقل لا يطلب دنيا خالية من الكدر، فإن ذلك لا يكون، وإنما يسأل الله العون والثبات، ويجعل مكابدته في طاعة الله، حتى تنتهي مشقة الدنيا إلى راحة الجنة، لا إلى كرب الآخرة.

الخلاصة:

1. معنى قوله تعالى: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أن الإنسان يظل يقاسي شدائد الحياة ومتاعبها منذ بداية خلقه إلى وفاته.
2. التعب والمشقة سنّة عامة لا يَسلم منها غني ولا فقير، ولا حاكم ولا محكوم، ولا صالح ولا غير صالح، وإن اختلفت صورها وأسبابها.
3. أعظم صور المكابدة النافعة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن المعصية، والصبر على أقدار الله المؤلمة.
4. الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره، بينما تحيط بالنار الشهوات؛ ولذلك يحتاج المؤمن إلى مجاهدة نفسه باستمرار.
5. ليست العبرة بمجرد ما يبذله الإنسان من تعب، بل بالغاية التي يتعب من أجلها؛ فمن الناس من يكدح للدنيا والشهوات، ومنهم من يكدح في سبيل الله وطلب رضاه.
6. أخسر الناس من جمع بين شقاء الدنيا وشقاء الآخرة، وأسعدهم من صبر على كبد الدنيا في طاعة الله حتى انتهى إلى راحة الجنة.
7. الموت لا يكون راحة للجميع؛ وإنما يستريح المؤمن من تعب الدنيا إلى رحمة الله، أما الفاجر فيستريح الناس وسائر المخلوقات من أذاه وفساده.
8. فهم حقيقة الدنيا يخفف على المسلم الصدمات؛ فلا ينتظر منها صفاءً دائمًا، ولا يظن أن نزول البلاء به دليل على هوانه عند الله.
9. لا ينبغي للمؤمن أن يستسلم للمشقة أو يتخذها مبررًا للعجز؛ بل عليه العمل، والأخذ بالأسباب، والصبر، واحتساب الأجر.

10. المسلم مأمور بالاستعانة بالله في أمور دينه ودنياه؛ لأنه عاجز عن جلب مصالحه ودفع مضاره استقلالًا.

11. قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» يربي المؤمن على التبرؤ من قوته، والافتقار إلى الله، واليقين بأن التحول من حال إلى حال لا يكون إلا بإعانته.

12. يحتاج العبد إلى عون الله في أداء الطاعات، وترك المحرمات، والصبر على البلاء، وعند الموت، وفي القبر، وفي أهوال يوم القيامة.

13. من حقق عبادة الله والتوكل عليه والاستعانة به أعانه الله وقوّاه وثبّته، ومن خذله الله فلا معين له.

****

الإنسان في القرآن

﴿لقد خلقنا الإنسان

في أحسن تقويم﴾

[سورة التين:4]

17- ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾

[سورة التين:4]

قال تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) [التين: 4]

معنى الآية الكريمة

هذه الآية الرابعة من سورة التين التي أقسم الله في مطلعها بأربعة أشياء:

- **أقسم بالتين، وبالزيتون**، وهما من الثمار المشهورة، وهما يشيران إلى بيت المقدس موطن بعثة عيسى.
- **وأقسم بجبل الطور "طور سيناء"** الذي كلَّم الله عليه موسى تكليمًا.
- **وأقسم بالبلد الأمين (مكة المكرمة)** مهبط الوحي الإلهي الشريف.
- ثم جاء جواب القسم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: لقد خلق الله جنس الإنسان في أكمل هيئة وأحسن اعتدال

(لقد خلقنا الإنسان) أي جنس الإنسان المؤمن والكافر.

(في أحسن تقويم) التقويم في اللغة: من قومت الشيء تقويماً، إذا جعلته على أحسن الوجوه التي ينبغي أن يكون عليها في التعديل والتركيب.

وفي الآية قولان لعلماء التفسير:

القول الأول :خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، معتدل القامة، جميل الصورة، وفي وجهه للنظر عينان، وللسمع أذنان، ولسان وشفتان، ومنحه الله يدين يبطش بهما، ورجلين يمشي عليهما، وعقلا يفكر به، وكرّمه الله تكريما عظيما، وفضّله على كثير من مخلوقاته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:

70] والمرادُ من الصّورة الحَسنة: ليسَ هو جمال المنظر ؛ إذ ليسَ جميعُ البشر كذلك، بل المقصودُ تناسبُ أجزاءِ الإنسان بعضها مع بعض وتناسبُ مجموعِها مع الغاية التي خُلِق من أجلِها، فالأجهزةُ الفعّالةُ في جسم الإنسان فيها غايةُ التناسبِ، والاِنسجام، وتفاعلِ بعضِها مع البعض الآخر حتّى في جسم الإنسان الذي له يدٌ زائدة، أو رجلٌ أو غير ذلك، فجسمُ كلّ إنسانٍ متناسبُ الأجزاءِ والأجهزة بمعنى اِنسجام بعضِها مع البعض الآخر، وأيضاً بمعنى اِنسجامها مع الغايةِ والهدف من الخليقة، حيثُ إنّ مجموعَ هذا التركيب الخاصّ من الجسم والرّوح يعتبرُ منسجماً مع درجةِ الكمال التي ينبغي للإنسان الوصولَ إليها من خلال هذه التركيبة الخاصّة المكوّنة من الجسم والروح.

فتضمن جواب القسم في هذه الآية مظهرا عظيما من مظاهر القدرة والعلم والرحمة وهي موجبة للإيمان بالله وتوحيده ولقائه، وهو ما كذب به أهل مكة وأنكروه، وبيان ذلك أن الإنسان كائن حي مخلوق فخالقه ذو قدرة قطعا وتعديل خلقه بنصب قامته وتسوية أعضائه وحسن سمته وجمال منظره دال على علم وقدرة وهي موجبة للإيمان بالله ولقائه، إذ القادر على خلق الإنسان اليوم وقبل اليوم قادر على خلقه غدا كما شاء متى شاء، وإنكار دلالة الخلق الأول على إمكان البعث إنكار يخالف بداهة العقل؛ فإن القادر على البدء قادر على الإعادة.

ما الحكمة من خلق الإنسان؟

خلق الله الإنسان لعبادته، وابتلاه بما منحه من عقل وإرادة، وأمره بعمارة الأرض وفق شرعه، **قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]**

قال الدكتور عبد المجيد الزنداني في إحدى محاضراته: جرت مجادلة بيني وبين أحد علماء بريطانيا: البروفيسور كروستوفر بالس ، وهو طبيب من مشاهير علماء بريطانيا في الطب ، فقلت له : هل وُجِدَت عينك لحكمة؟ قال : نعم "
قلت : وهل وُجِدَ أنفك لحكمة ؟
قال : نعم،
وأخذت أعدد أعضاء الجسم
فقال لي : هذه مواضيع أبحاث علمٍ يسمى علم وظائف الأعضاء لا يتخرج الطبيب من أي كلية في الطب إلا إذا درسه
فقلت له : هل الحكمة من هذا العضو خاصة بالعضو نفسه ، أم أنها من أجل الكل؟(أردت أن يعترف أن الحكمة من الأجزاء ليست من أجل الأجزاء نفسها وإنما

من أجل الكل)
فقال: أرأيت لو جئت بالجهاز الهضمي وحده من دون الجسم أله قيمة؟
قلت: لا
قال: كيف تقول: إن الأعضاء والأجهزة أحكمت من أجل نفسها ولم تحكم من أجل الكل؟
قلت له: أنا كنت أسأل وأنت قد أجبتني ، فما الحكمة من هذا الكل؟ (يقصد الإنسان) فبهت وأطرق برهةً وأدرك أنه وقع في الفخ!!وقال: هذه فلسفة!
قلت له: قبل قليل كان علماً (علم وظائف الأعضاء)!! ولكن عندي سؤال أفي استعمال حذائك حكمة؟
قال: نعم لها فائدة؛ فهي تقيني الأذى، فهي تحمي قدمي من الاصطدام بالأجسام الثقيلة ومن الخدش بالأجسام الحادة، ومن التضرر بالسوائل الضارة، ومن تقلبات الجو، ومن اختراق بعض الكائنات وغير ذلك.
فقلت له: ألوجودك حكمة؟ فبهت مرة ثانية!
فقلت له: والله أني لأعجب يا برفسور من حضارتكم التي تقول لكم: إن الإنسان أحقر من نعله!! فلاستعمال الحذاء حكمة، ولابسها لا حكمة من وجوده!! أما لماذا لم تعرفوا الحكمة ولماذا هربت فذلك لأن الحكمة من خلقك لا تعرف إلا بتعليم من الخالق، وأنتم لا تعرفون الخالق، فكيف ستعرفون حكمة وجودكم؟! لذلك سيبقى الإنسان في نظركم أقل شأناً من الحذاء،

القول الثاني: منحناه ما لم نمنحه لغيره، من بيان فصيح، ومن عقل راجح، ومن علم واسع، ومن إرادة وقدرة على تحقيق ما يبتغيه في هذه الحياة، بإذننا ومشيئتنا، وخلق الله الإنسان على الفطرة النقية الصافية ألا وهي الإيمان بوجود الخالق جل وعلا، ولذلك لم يأت الرسل لإثبات وجود الله إنما أرسلوا لتصحيح الاعتقاد في الله، فالإنسان مخلوق على الفطرة، ويفسر هذا المعنى **قول النبي ﷺ "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه"** ذلك أن أبويه هما أول من يتولى تأديبه وتعليمه.

والله تعالى الذي اصطفي الإنسان من بين مخلوقاته ، خلقه خلقاً متميزاً وفريداً؛ ليتمكن من حمل الأمانة التي أوكلها الله إليه ،وحملها الانسان مختارا طائعا ، ألا وهي تحقيق الاستخلاف في الأرض ،وعمارتها ، في إطار تحقيق العبودية الخالصة ، العبادة لله وحده في مفهومها الشامل ، ولذلك كان من الطبيعي أن يزوده الله تعالى (الخالق جل جلاله) بكل ما يلزمه من أدوات ووسائل ؛ليتمكن من تحقيق الغاية التي خلق من أجلها، فأصبح بما وهبه الله من هذه القدرات والاستعدادات

والإمكانات في أحسن صورة، ولكن في حال استخدامها للغاية التي خلق من اجلها وهي تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى ،أما أولئك الذين تنكبوا الطريق ، وابتعدوا عن النهج الإلهي، وتمردوا على الغاية التي خلقوا من أجلها فإنهم لم يعودوا في أحسن تقويم ، وإنما وصفهم الباري جل جلاله بوصف آخر :

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: 5-6]، وهذا يعني أن الذين حافظوا على أصل فطرتهم، واتبعوا ما أمرهم الله تعالى به، والتزموا منهج الله تعالى، واتبعوا ما أنزل إليهم، فقد حافظوا على وسام التكريم الذي اختصهم الحق جل وعلا به، وهم الذين استحقوا ثبات وصف " أحسن تقويم " في حقهم.

قوله تعالى: (ثم رددناه أسفل سافلين) فيه قولان لعلماء التفسير:

القول الأول: أسفل سافلين: إلى النار يعني الإنسان الكافر، أي: جعلناه من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح، وأسفل من كل سافل.

القول الثاني: أسفل سافلين أي أرذل العمر، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: 68] أي: ومن نُطِلْ عمره حتى يهرم نُعِدْه إلى الحالة التي ابتدأ منها حالة ضعف العقل وضعف الجسد، أفلا يعقلون أنَّ مَن فعل مثل هذا بهم قادر على بعثهم؟

وعلى هذا القول يكون المعنى: ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتعديل أسفلَ مَن سفُلَ في حُسن الصورة والشكل حيث ننكسه في خلقه، فقوَّس ظهره بعد اعتداله، وابْيَضَّ شعره بعد سواده، وتكمش جلده، وضعف سمعه وبصره، وربما وصل إلى مرحلة ضياع الذاكرة وخرف العقل، واهتزاز اليد وقلة الحيلة، وكان ﷺ يستعيذ بالله من أن يرد إلى أرذل العمر.

الإيمان والعمل الصالح هما سبيل النجاة للإنسان من التردي:

واستثنى الحق جل جلاله من هذه النهاية المقررة في قوله تعالى: **{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}**، على القولين السابق الاشارة إليهما: النار للكافر، أو أرذل العمر لعموم الناس، استثنى من تلك النهاية الفريق الذي تمسك بالإيمان، وتحلى بالعمل الصالح

في كل ما يأتي وكل ما يدع، **فقال تعالى:** ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [التين: 6]

قال ابن القيم رحمه الله (في كتابه: التبيان في أقسام القرآن) بعد أن أورد قولي أهل العلم في معنى أسفل سافلين: (النار، أو الهرم)

والصواب القول الأول (أي النار) لوجوه:

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجّين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار.

الثاني: أن المردودين إلى أرذل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر،

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصاً بالكفار حتى يستثنى منهم المؤمنين.

الرابع: أن الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم فقال: ﴿**وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ**﴾ [الحج: 5] فجعلهم قسمين قسماً متوفي قبل الكبر، وقسماً مردوداً إلى أرذل العمر ولم يسمه أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون،

السادس: أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم، ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس، فيكون قد ترك الأخبار عن المقصود الأهم، وأخبر عن امر يعرف بالحس والمشاهدة، وفي ذلك هضم لمعنى الآية وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه سبحانه ذكر حال الإنسان في مبدأه ومعاده، فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون، وهذا موافق لطريقة القرآن، وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده، فما لأرذل العمر وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه.

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس ، وإخراج الكلام عن ظاهره والتكلف البعيد له فإنهم إن قالوا إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحس ، وإن قالوا إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء ، فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل اعمالهم إذا ردوا إلى أرذل العمر ، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة ، فهذا وإن كان حقاً فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل، ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة فقالوا من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر، وهذا ضعيف من وجهين :أحدهما أن الاستثناء عام في المؤمنين قارئهم وأميهم وأنه لا دليل عليما ادعوه وهذا لا يعلم بالحس ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه والله أعلم .

التاسع: أنه سبحانه ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين فإذا لم يؤمن به وأشرك به وعصى رسله نقله منها إلى أسفل سافلين وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته،

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله تعالى ﴿**فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [الانشقاق: 24-25] فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا والله أعلم.

الخلاصة:

1. خلق الله الإنسان في أحسن هيئة، وأكمل تركيب، وأعدل قامة، بما يدل على عظيم قدرته وعلمه وحكمته ورحمته.
2. لا يقتصر «أحسن تقويم» على جمال المظهر، بل يشمل تناسق الجسد، ودقة أجهزته، واجتماع الروح والعقل والإرادة والقدرة على البيان والعمل.
3. تميّز الإنسان بالعقل والبيان والإرادة من أعظم النعم التي أهّلته لمعرفة الله وحمل الأمانة والقيام بالتكاليف الشرعية.

4. خَلْق الإنسان بهذه الصورة المحكمة دليل ظاهر على وجود الخالق ووحدانيته وكمال قدرته.

5. القادر على خلق الإنسان أول مرة قادر على بعثه بعد موته ومحاسبته؛ فالخلق الأول برهان على إمكان الإعادة.

6. تكريم الإنسان ليس دعوة إلى الغرور، بل يوجب عليه شكر الله واستعمال نعمه في طاعته.

7. لا تتحقق قيمة الإنسان الحقيقية بمجرد حسن خلقته الجسدية، بل بكمال إيمانه واستقامته وحسن استعماله لما منحه الله من قدرات.

8. من أعرض عن الإيمان وغاية خلقه هبط من مقام التكريم إلى «أسفل سافلين»

9. الشيخوخة وضعف البدن يذكّران الإنسان بأصله وضعفه، ويدلان على أن القوة والصحة نعمتان زائلتان تستحقان الشكر وحسن الاستعمال.

10. الإيمان والعمل الصالح هما سبيل النجاة من التردي، وسبب الفوز بالأجر الدائم الذي لا ينقطع ولا ينقص.

11. السورة تجمع رحلة الإنسان كلها: حسن البداية بالخلق والتكريم، ثم افتراق الناس بحسب موقفهم من الإيمان، ثم اختلاف المصير بين أسفل سافلين والأجر غير الممنون.

12. الجزاء الأخروي قائم على عدل الله؛ فمن شكر نعمة الخلق بالإيمان والطاعة فله الكرامة، ومن كفر بها وأعرض فله العقوبة العادلة.

13. أعظم ما يحفظ للإنسان كرامته أن يعرف ربَّه، وغايةَ وجوده، وأن يعيش عبدًا لله نافعًا لعباده، مستعدًّا للقائه.

****

الإنسان في القرآن

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾

[سورة العلق:6]

18- ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾

[سورة العلق:6]

يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 6-7]

معنى الآيتين الكريمتين

﴿كَلَّا﴾ تَرِدُ "كلا" كلمة ردع وزجر عن حال الغفلة والجحود، وقيل: إنها هنا بمعنى «حقًّا»، أي: حقًّا إن الإنسان ليطغى، والردع والزجر أنسب بالسياق الوعظي؛ لأن الآيات تنتقل من ذكر تعليم الله الإنسان إلى التحذير من طغيانه حين يتوهم الاستغناء.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ المراد جنس الإنسان.

﴿لَيَطْغَى﴾ من الطُّغيان: وهو مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الْعِصْيَانِ.

أي: إن من طبيعة الإنسان، إذا غفل عن ربه واتبع هواه، أن يتجاوز الحد، فيستكبر عن طاعة الله، ويظلم عباد الله، وينسى ضعفه وأصله ومصيره، ثم بيّن الله سبب هذا الطغيان فقال:

﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ لأن الإنسان رأى نفسه مستغنيًا؛ فـ«أن» مصدرية تعليلية، والهاء في ﴿رَآهُ﴾ تعود إلى الإنسان نفسه، والمعنى: يطغى بسبب رؤيته نفسه في حال من الغنى والاستغناء.

﴿اسْتَغْنَى﴾ من الغنى، ومعناها هنا: رأى نفسه ذا غنى وكفاية، **والاستغناء:** أن يعدُّ الإنسان نفسه غير محتاج إلى غيره، أو شعوره بأنه قد صار في يستكبر غنى وكفاية.

والمراد في الآية أن الإنسان قد يطغى حين يرى نفسه ذا مال أو قوة أو جاه، فيتوهم أنه غير محتاج إلى ربه أو إلى خلقه.

والمعنى: يردع الله الإنسان عن الغفلة والجحود، ويقرر حقيقةً من حقائق النفس البشرية: أن الإنسان قد يتجاوز حدود العبودية والطاعة حين يرى نفسه في غنى وكفاية، فيغتر بماله أو علمه أو صحته أو سلطانه.

وليس الغنى في ذاته مذمومًا، وإنما المذموم أن ينسى الإنسان مصدر النعمة، ويتوهم أنه مستغنٍ عن ربه، فيستكبر عن الحق ويظلم الخلق. أما المؤمن فيرى كل نعمة فضلًا من الله وابتلاءً يستوجب الشكر، ويظل مستشعرًا فقره إلى ربه مهما كثرت أسباب قوته وغناه.

طغيان الإنسان وأسبابه

أنواع الاستغناء: الاستغناء نوعان:

استغناءٌ مطلق لله وحده: فالله سبحانه هو الغني بذاته عن جميع خلقه، وكل من سواه مفتقر إليه في وجوده وبقائه ورزقه وتدبيره، وهذا نفهمه من معنى اسم الله الغني.

واستغناءٌ نسبي للمخلوق: فقد يفتتن الإنسان بما أوتي من مال أو علم أو صحة أو قوة أو سلطان، فيرى نفسه في غنى وكفاية، ويتوهم أنه غير محتاج إلى ربه، فيقوده هذا الشعور إلى الطغيان فهذا وهم كاذب، وضلال مُبين؛ مبنيٌّ على ضعفٍ في رؤيته، وقد بين سبحانه وتعالى هذه الحقيقة فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: 15] فلسنا فقراء إلى الله في المال وحده، بل نحن فقراء إليه في كل شيء: فقراء إليه في وجودنا، وحياتنا، وصحتنا، ورزقنا، وهدايتنا، وثبات قلوبنا، وصلاح أولادنا، وحسن خاتمتنا، ونحتاج إليه في كل نَفَس، وفي كل نبضة قلب، وفي كل حركة وسكون. ولو وكل الله الإنسان إلى نفسه طرفة عين لضاع وهلك.

أسباب طغيان الإنسان

إن المال والقوة والعلم والسلطان ليست شرورًا في ذاتها، بل هي نعم من الله، وقد تكون أبوابًا عظيمة للخير، وإنما يبدأ الشر حين ينسى صاحب النعمة المنعم، ويرى نفسه مستغنيًا بما في يديه.

فالمال إذا صاحبه الشكر صار بركة، وإذا صاحبه الغرور صار فتنة.

والعلم إذا صاحبه التواضع رفع صاحبه، وإذا صاحبه الكبر كان حجة عليه.

والسلطان إذا قام على العدل كان أمانةً ورحمة، وإذا قام على الظلم كان وبالًا وحسرة.

والقوة إذا استُعملت في نصرة الحق كانت نعمة، وإذا استُعملت في البطش بالضعفاء صارت سببًا للهلاك.

أما عن سبب طغيان الإنسان فهي كالتالي:

1- أن يرى نفسه مستغنيا عن غيره:

وهذا عمى في الحقيقة؛ فالمرء لا يستطيع الاستغناء عن غيره، كما قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة

بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدم

كلُّ إنسان لا يستطيع أن يعيش وحده، بل لا بدَّ أن يحتاج إلى آخرين، كما يحتاج إليه آخرون؛ فالغنى في ذاته ليس شرا، فقد آتى الله بعض خلقه المال، والملك وكثير من النعم، وفي الحديث أن النبي قال لعمرو بن العاص: **"نعْم المال الصالح للرجل الصالح"**، ولكن المذموم هو الاستغناء واعتقاد الإنسان نفسه غنيا عن كل ما سواه؛ لأن لديه مالا وثروة، فهذا الوهم هو الذي غرَّه وطمس بصيرته.

فليس الغنى هو مصدر الطغيان، بل رؤية الشخص نفسه مستغنيا عن غيره.

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في تفسير الآية:

كلُّ إنسانٍ من بني آدم إذا رأى نفسَه استغنى فإنَّه يطغى:

- إذا رأى أنَّه استغنى عن رحمة الله طغى ولم يُبالِ.
- إذا رأى أنَّه استغنى عن الله عز وجل في كَشْف الكُرُبات وحصول المطلوبات صار لا يلتفت إلى الله ولا يبالي.
- إذا رأى أنَّه استغنى بالصحة نَسِيَ المرض.
- وإذا رأى أنَّه استغنى بالشبع نَسِيَ الجوع.

- إذا رأى أنَّه استغنى بالكسوة نَسِيَ العُري ... وهكذا.
- فالإنسان من طبيعته الطُّغيان والتمرُّد متى رأى نفسَه في غِنًى.

2- الجاه والسلطان:

من الناس من يطغيهم ملكهم، وشَرُّ سَلِفٍ لهم فرعون الذي ظن لنفسه فضلاً على كليم الله موسى عليه السلام بحجة فارغة حيث قال: **{أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ}** [الزخرف/51] ثم جاوز الحد في الطغيان حتى قال: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [النازعات/24]

3- القوة:

ومنهم من تطغيهم قوتهم وهؤلاء سلفهم عاد قوم هود حيث قالوا: **{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}** [فصلت/15]

هل الطغيان للأغنياء والحكام فقط؟

قد يظن بعض الناس أن الآية تتحدث عن الطغاة والحكام والأغنياء وحدهم، ولكن الله قال: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى**﴾، فالتحذير موجَّه إلى كل إنسان.

- قد يطغى الزوج في بيته، ويظن أن القوامة تبيح له الظلم والإهانة.
- وقد يطغى الأب على أولاده، ويظن أن الأبوة تسقط حقوقهم.
- وقد يطغى صاحب العمل على العامل، فيبخسه أجره ويكلفه ما لا يطيق.
- وقد يطغى العالم بعلمه، والعابد بعبادته، والغني بماله، والقوي بقوته، وصاحب النسب بنسبه.
- وقد يكون الإنسان فقيرًا لا يملك مالًا، ومع ذلك يطغى بكلامه أو برأيه أو بما يملك من سلطة صغيرة.
- فكل من تجاوز حدود الله، واستعلى على عباده، ورفض الحق، فقد أخذ بنصيب من الطغيان.

ولذلك جاءت الآية التالية علاجًا لهذا الغرور كله: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.

يا من غرّك مالك: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.

ويا من أفسدك منصبك: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.

ويا من ظلمت الضعيف: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.

ويا من رأيت نفسك مستغنيًا: ستقف بين يدي الله وحدك، بلا مال ولا جاه ولا أعوان، **قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 95].**

فذكر الرجوع إلى الله يكسر الكبر، ويمنع الظلم، ويرد النفس إلى حدودها.

ومن أيقن أنه سيقف بين يدي الله ليسأله عن ماله وسلطانه وعلمه وقوته؛ أحسن استعمال النعمة، وخاف من ظلم العباد.

الجزاء من جنس العمل:

ولما كان الطغيان علواً في الأرض بغير الحق كانت عاقبته الذلة والهوان، أما فرعون الذي غره ملكه وادعى أنه الرب الأعلى فقد سلبه الله ملكه، ثم جعله الله لمن خلفه آية، وأما عاد الذين غرتهم قوتهم فقد أخزاهم الله وأرسل عليهم جنداً من جنده، قال الله تعالى: **{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} [فصلت/16]**

وأما قارون الذي اختال على الناس بكنوزه وأمواله وعلا بها عليهم فقد صيره الله عز وجل أسفل سافلين، قال الله: **{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} [القصص/81]** هذا في الدنيا وللظالمين أمثالها؛ وأما في الآخرة فقد قال الله سبحانه وتعالى: **{فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات/37-39]**

استثناء المؤمنين الصادقين:

وذكر الإنسان هنا في هذه الآية المقصود به الجِنْسِ البشري، فهو حكمٌ على جنس الإنسان، والحُكْم على الجنس لا يعني بالضرورة استغراق جميع الأفراد، فالمؤمنون مُسْتَثْنَوْن من هذا الشعور الكاذب، ومن هذا الطغيان المرير، لأن إيمان المؤمن يبعده عن الاستغناء والطغيان ويقرّبه من الافتقار إلى الله والتواضع بين

الخلق، لأن المؤمن يوقن أن الله حينما يُعْطي الإنسان قوةً فهذا فضلٌ من الله عليه، كما قال نبي الله سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده : **(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [النمل: 40]**

ولما دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة فاتحاً، وحوله عشرة آلاف موحد، دخل مكة مطأطئ الرأس حتى كادت ذقنه تُلامس الرحل إجلالا وتعظيما لله عزَّ وجل،

فالمؤمن لا يرى أنه استغنى عن الله طرفة عين، فهو دائمًا مفتقرٌ إلى الله سبحانه وتعالى، يسألُ ربَّه كلَّ حاجة، ويلجأُ إليه عند كلِّ مكروه، ويرى أنَّه إنْ وَكَله الله إلى نفسه وَكَله إلى ضعفٍ وعجْزٍ وعورةٍ وأنَّه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، هذا هو المؤمن، لكن الإنسان من حيث هو إنسانٌ من طبيعته الطغيان.

علاج الطغيان

علاج الطغيان لا يكون برفض النعم أو ترك طلب الرزق والقوة، وإنما يكون بإصلاح نظرتنا إليها، ومعرفة أنها من الله، وأنها أمانة وابتلاء، **قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]**

وللوقاية من الطغيان وسائل عظيمة، منها:

أولًا: استحضار الافتقار الدائم إلى الله.

فلا تقل: أنا أملك، وأنا أقدر، وأنا فعلت، ناسيًا فضل الله؛ بل قل كما قال العبد الصالح: **﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40].**

ثانيًا: شكر النعم واستعمالها في الطاعة.

- فشكر المال أداء زكاته والإنفاق منه في الخير.
- وشكر العلم تعليمه والعمل به والتواضع للمتعلمين.
- وشكر القوة نصرة الضعفاء.

- وشكر المنصب إقامة العدل وقضاء حاجات الناس.
- وشكر الصحة اغتنامها في العبادة والعمل النافع.

ثالثًا: تذكّر تقلّب الأحوال.

فالغني قد يفتقر، والقوي قد يضعف، والصحيح قد يمرض، وصاحب المنصب قد يُعزل، والحي لا بد أن يموت، فلا يغتر العاقل بحال يعلم أنها لا تدوم.

رابعًا: التواضع للناس وقبول الحق.

كان نبينا ﷺ سيد ولد آدم، ومع ذلك كان متواضعًا؛ يجالس الفقراء، ويجيب الدعوة، ويخدم أهله، ولا يمنعه مقامه من قبول الحق والإحسان إلى الضعفاء.

وكان يوم فتح مكة داخلًا في جيش منتصر، ولكنه دخل خاضعًا لله، مطأطئ الرأس شكرًا لربه، فعلمنا أن النصر الحقيقي يزيد المؤمن تواضعًا، ولا يزيده غرورًا وطغيانًا.

خامسًا: تذكّر الرجوع إلى الله.

فكلما دعتك نفسك إلى الظلم، فتذكر: ﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾. وكلما حملتك النعمة على الكبر، فتذكر القبر والوقوف بين يدي الله، وكلما قدرت على ضعيف، فتذكر قدرة الله عليك.

الخلاصة:

1. الإنسان معرَّض للطغيان ومجاوزة حدود الله متى توهَّم أنه مستغنٍ عن ربِّه وعن الخلق.
2. الطغيان هو مجاوزة الحد في المعصية والظلم والاستكبار، وليس مقصورًا على صورة واحدة.
3. الاستغناء الحقيقي المطلق صفة لله وحده؛ فهو الغني عن جميع خلقه، والخلق كلهم فقراء إليه.
4. استغناء الإنسان استغناء نسبي ووهمي؛ فهو محتاج إلى الله في وجوده وبقائه ورزقه وصحته وهدايته، ومحتاج إلى الناس في شؤون حياته.

5. ليس الغنى في ذاته مذمومًا، وإنما المذموم أن يرى الإنسان ماله سببًا للاستعلاء، أو يظن أنه يغنيه عن الله وعن أداء حقوق الخلق.

6. المال نعمة إذا اكتسبه صاحبه من الحلال واستعمله في الطاعة والإحسان.

7. قد يكون سبب الطغيان المال، أو الجاه، أو السلطان، أو القوة، أو الصحة، أو العلم، أو أي نعمة يظن صاحبها أنها مستقلة عن فضل الله.

8. شعور الإنسان بالاكتفاء بالصحة يُنسيه المرض، وبالشبع يُنسيه الجوع، وبالقوة يُنسيه الضعف؛ ولذلك ينبغي أن يتذكر تقلّب الأحوال.

9. الجزاء من جنس العمل؛ فمن علا على الناس بغير الحق كانت عاقبته الذلة، ومن تكبّر بنعمة سُلِبت منه أو صارت سببًا لهلاكه.

10. للطغيان عقوبة في الدنيا من الخزي والمهانة وزوال النعم، وعقوبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

11. المؤمن ينظر إلى كل نعمة على أنها فضل من الله وابتلاء له: أيشكر أم يكفر، ولا ينسبها إلى قوته واستحقاقه المجرد.

12. شكر النعمة يكون بالاعتراف بفضل الله، والثناء عليه، واستعمال النعمة في طاعته ونفع عباده.

13. الإيمان الصادق يحمي صاحبه من وهم الاستغناء، ويورثه الافتقار إلى الله والتواضع للخلق.

14. كلما ازدادت نعم المؤمن وقوته وسلطانه، وجب أن يزداد تواضعًا وشكرًا؛ اقتداءً بالأنبياء والصالحين.

15. من أعظم صور التواضع تواضع النبي ﷺ يوم فتح مكة؛ فقد دخلها خاضعًا لله مع ما تحقق له من النصر والقوة.

16. حاجة الإنسان إلى الله لا تنقطع طرفة عين؛ فهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا بإذن الله.

17. من وسائل الوقاية من الطغيان: دوام ذكر الله، واستحضار الافتقار إليه، ومحاسبة النفس، وأداء حقوق العباد، وتذكّر المرض والموت وزوال الدنيا.

الإنسان في القرآن

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾

العاديات 6

19- ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾
العاديات: 6

قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: 6]

معنى الآية الكريمة

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ الآية تشمل عموم الإنسان.

﴿لربه لَكَنُودٌ﴾ الكنود هو الكفور الجحود لنعم الله، وأصل الكلمة من كَنَدَ النعمةَ إذا كفرها. وتقول العرب: أرض كنود، أي لا تنبت شيئًا؛ فكأن الكنود لا يظهر عليه أثر ما أُسدي إليه من النعم.

أقوال السلف في معنى الكنود:

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: لكنود؛ أي: لكفور، جحود بنعم الله.
- قال الحسن: "يذكر المصائب وينسى النعم".
- وقال الفضيل بن عياض: الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان، والشكور الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة.

وأخذ الشاعر محمود الوراق هذا المعنى فقال:

يا أيها الظالم في فعله * والظلم مردود على من ظلم**

إلى متى أنت وحتى متى * تشكو المصيبات وتنسى النعم!**

قلت: هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود، فيبقى الإنسان متقلبًا في نعم الله زمانًا طويلًا، وهو في عافية، وممتَّعًا بهناءة العيش، وتيسير الأمور، وصلاح الأحوال؛ فإذا ما مسَّته نفحةٌ من بلاءٍ ونزلت به شدة عارضة؛ تبرَّم وتضايق، وأخذ يعد أيام البلاء، ويُكثِر الشكوى منها، وينسى أيام العافية

ويجحدها، وهذا هو الْكَنُودُ بعينه، وهو طبع في جنس الإنسان إلا من رحمه الله وعافاه،

سورة العاديات

جاءت هذه الآية ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ جوابا للقسم الذي افتتح به الحق جل وعلا سورة العاديات؛ فأقسم تعالى بالخيل المسرعات في سيرها.

قال تعالى "والعاديات ضبحا" أي العاديات عدواً شديدا وقوياً يصدر عنه الضبح وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد عدوها (الجري السريع) ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى تقدح الشرر منها.

قال تعالي "فالموريات" بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار **"قدحاً"** أي تنقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون.

"فالمغيرات صبحا" أي بعدوهن وغارتهن.

"فأثرن به نقعا" أي غبارا.

"فوسطن به" أي براكبهن **"جمعاً"** أن توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ فهو حقيقة في نفس الإنسان الذي يجحد نعمة ربه، وينكر جزيل فضله ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: وإن الله على ذلك لشهيد، ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنودا لشهيد، أي: بلسان حاله، أي: ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله.

وقوله: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ أي: وإنه لحب الخير -وهو: المال- لشديد، وفيه مذهبان:

أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال.

والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال، وكلاهما صحيح.

هذه فطرته وهذا طبعه ما لم يخالط الإيمان قلبه فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته ويحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراناً كما يبدل أثرته وشحه إيثاراً ورحمة ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾

ما أكثر نعم الله علينا، وما أقل شكرنا لها! خلقنا الله من العدم، وأمدنا بالصحة والعافية، وأطعمنا بعد جوع، وآمَننا بعد خوف، وستر عيوبنا، وغفر ذنوبنا، وأمهلنا ولم يعاجلنا بالعقوبة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 18].

ولو أمضى الإنسان عمره كله في عدّ نعم الله، لما استطاع إحصاءها؛ لأن كل نعمة تحيط بها نعم كثيرة، فنعمة البصر ليست العين وحدها، بل سلامة العين، ووصول الضوء، وقدرة الدماغ على إدراك الصورة، ثم نعمة الانتفاع بما نراه.

ونعمة الطعام ليست في وجوده فحسب، بل في القدرة على شرائه، ومضغه، وبلعه، وهضمه، والانتفاع به، وإخراج ما يضر منه.

وفي كل نَفَس نعم لا نحصيها، وفي كل نبضة قلب رحمة لا نشعر بها، وفي كل ليلة ننامها حفظ وعناية من الله.

من صفات الإنسان الكنود

1- عندما يُصاب بمصيبة واحدة، تغيب عن عينيه آلاف النعم.

وقد يُحرم شيئًا يريده، فيظن أنه لم يُعطَ شيئًا، وقد يسمع خبرًا يكرهه، فينسى أعوامًا من العافية والستر، وهذه من علامات الكنود: أن تكون ذاكرة الإنسان قوية في حفظ المصائب، ضعيفة في تذكر النعم.

قصة لحاتم الأصم:

رُوِي أنه كان في زمن حاتم الأصم رجل أصابته مصيبة، فجزع منها وأمر بإحضار النائحات، فسمع به حاتم فذهب إلى تعزيته مع تلامذته، وأمر تلميذًا له، فقال: إذا جلست فاسألني عن قوله تعالى: **﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾** [العاديات: 6]

فسأله فقال حاتم: ليس هذا موضع السؤال!! فسأله ثانيًا وثالثًا، فقال: معناه إن الإنسان لكفور، عدّاد للمصائب، نسّاء للنعم، مثل هذا الرجل (يقصد صاحب العزاء) أن الله -تعالى- متّعه بالنعم خمسين سنة، فلم يجمع الناس عليها شاكرًا لله، عز وجل، فلما أصابته مصيبة جمع الناس يشكو من الله تعالى!!

فندم الرجل على ما فعل وصرف النائحات وتاب إلى الله عز وجل.

2- أن يستعمل العبد نعمة الله في معصيته.

أعطاه الله بصرًا، فنظر به إلى الحرام. وأعطاه سمعًا، فاستمع به إلى الباطل. وأعطاه لسانًا، فاغتاب وكذب وآذى. وأعطاه مالًا، فأنفقه فيما يغضب الله ومنع منه حقوق العباد. وأعطاه صحةً وفراغًا، فضيعهما في اللهو والغفلة. وأعطاه علمًا، فجادل به في الباطل أو تعاظم به على الناس.

فأي جحود أعظم من أن يستعين الإنسان بنعمة المنعم على معصيته؟!

قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: 83].

3- نسبة النعمة إلى النفس وحدها

فيقول الإنسان: إنما حصلت عليها بذكائي، وخبرتي، وجهدي؛ وينسى توفيق الله وفضله. نعم، للإنسان سعي وعمل، ولكنه ما كان ليعمل لولا أن الله أقدره، وما كان لينجح لولا أن الله يسّر له الأسباب، **قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾** [النحل: 53].

4- التذمر الدائم، فلا تسمع من صاحبه إلا الشكوى

يشكو بيته وأهله ورزقه وعمله وصحته، وكأن الله لم ينعم عليه قط، ومثل هذا يحرم نفسه لذة النعمة، فلا هو استمتع بما أُعطي، ولا هو رجا ما عند الله فيما مُنع.

ومن أكبر مداخل الشيطان أن يجعلك ساخطا دائما لا ترضى عن شيء، وقد قال الشيطان ذلك بنفسه كما ورد في القرآن في الحوار بين رب العزة جل وعلا وإبليس قال: **(ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين)** [الأعراف/17]

فالشيطان دائما يزين للبعض الشعور الدائم بالقهر والظلم والنقص والتخبط في الحياة ، أنا رجل منحوس حظي سيء ، أنا هكذا انتقل من مصيبة إلى مصيبة ، لم يمر بي يوم سعيد أبدا ، ويغمسك غمسا في جو من الكآبة والحزن والشعور الدائم بأنك تعيس ومحروم ومظلوم ، ولم تأخذ حقك من الدنيا ...الخ ، فبالتالي تكون ساخطا على الله وإن لم تنطق بذلك، ويجعلك تكرر هذه الأفكار فتتأكد لديك وتظل ساخطا على الله وأقداره، فلا يجري على لسانك كلمة الحمد لله، ودائما تجد أن غيرك افضل منك، وأنك مهما سعيت فأنت منحوس، النحس يلازمك، الشؤم يجري وراءك (وليس هناك شيء اسمه النحس بالمعنى الشائع عندنا لكن هكذا يوسوس الشيطان)، الفقر هو الذي ينتظرك كل يوم، والمستقبل القريب أسود ومظلم، وهذا المدخل أضل الشيطان به عبادا كثيرين.

والمؤمن، قد تعرض له وساوس، وهواجس، ولكنه إذا كان صاحب إيمان ويقين وكان موفقا من الله عز وجل، سرعان ما تزول تلك الوساوس وتختفي الهواجس، ويعود إليه منطق الإيمان ونور العقيدة القويمة... والاطمئنان.

حقيقة الدنيا:

وحتى نفهم الأمور جيدا: الدنيا ليست كالجنة، ومن يظن أن الدنيا كالجنة فهو واهم؛ فالدنيا دار ابتلاء أما الجزاء، وتوفية أجور الأعمال الصالحة فهذا في الدار الآخرة؛ ولن يكون في الدنيا، **قال تعالى: (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة)** [آل عمران/185]

الدنيا تشبه لجنة الامتحان للطلبة، الطالب في الجامعة حتى يتحصل على الشهادة النهائية لا بد له من دراسة أربعين مادة والامتحان فيها ، على سبيل التقريب لهذا المعنى: سيكون عندك في الدنيا اختبار في مادة الغنى وآخر في مادة الفقر ، اختبار الصحة واختبار المرض ، اختبارات في الفتن : فتنة النساء ، المال ، التجارة ، معاملة الناس ، السلطة ، العلم ، فتن كثيرة وامتحانات تتعرض لها ، وقد أوضح النبي -ﷺ:- هذا المعنى حينما قال : **(تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا)** يعنى مادة وراء مادة اختبار وراء اختبار ، وهكذا.

فكل العباد سيتعرضون لهذه الاختبارات حتى يأتي الأجل المسمى (الموت) ثم يكون الجزاء يوم القيامة، فالدنيا ليست دار قرار ولا دار النعيم أو دار السلام، وليس الأصل فيها السواد أو الكآبة لكن الإنسان يتقلب في أقدار الله التي تصيبه خيرها وشرها، ربما سيرتقي وربما سيخفق، ربما يوفق وربما يخذل، هذا كله وارد، وكلنا

نتمنى العافية والسلامة والصحة والغنى، ومن ظن أن الدنيا ليست كذلك فهو واهم، من ظن أنه سيتحصل في الدنيا على كل شيء فهو واهم.

ولو استعرضنا الابتلاءات التي مر بها رسول الله ﷺ فقد تقلب في اليتم بداية من وفاة أبيه فأمه فجده... وعاش النبي ﷺ في الفقر والمعاناة والجوع وشدة العيش لدرجة أنه كان يربط حجرين على بطنه... ، فمر الرسول بابتلاءات كثيرة وصعبة، وعلى الرغم من هذا كله فقد كان يستقبل كل هذا بالحمد لله والشكر لله.

من علامات المؤمنين الحمد في السراء والضراء:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8]

خوله : أعطاه من النعم ما أعطاه بلا مقابل ، فهو مقبل على ربه حال الشدة ، فإذا كان في الرخاء نسي كل ذلك ، ولذلك من علامات المؤمنين أنهم يحمدون الله في السراء والضراء ، يتعرفون إلى الله في النعم بالشكر ، وعند الابتلاءات بالصبر ،

قال تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157]

وفي الحديث (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير؛ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكانت خيراً له.)

فالفوز للمسلم متحقق في السراء والضراء فهو عند النعمة شاكر لله، وعند الابتلاء صابر محتسب.

علاج الكنود

علاج الكنود هو الشكر، والشكر ليس كلمة تقال باللسان وحده، بل يقوم على ثلاثة أركان:

أولها: اعتراف القلب بأن النعمة من الله.

فلا يرى العبد نفسه مستقلًا بقدرته وذكائه، وإنما يرى فضل الله وراء كل خير وصل إليه، ويقول كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40].

وثانيها: الثناء على الله باللسان.

فيكثر العبد من حمد الله، ولا يحتقر نعمة مهما صغرت في عينه، وكان النبي ﷺ يقول: (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا) رواه مسلم.

وثالثها: استعمال النعمة في طاعة الله.

فشكر العين غضها عن الحرام، وشكر اللسان صدقه وذكره لله، وشكر المال أداء حق الله فيه، وشكر العلم نشره والعمل به، وشكر الصحة اغتنامها في الطاعة، وشكر الأبناء تربيتهم على الإيمان والأخلاق.

ومن الوسائل التي تعين على الشكر:

1- أن ينظر الإنسان إلى من هو دونه في أمور الدنيا، لا إلى من هو فوقه دائمًا؛ حتى لا يزدري نعمة الله عليه، **قال رسول الله ﷺ: (انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم) متفق عليه.**

2- ومنها أن يتذكر الإنسان النعم اليومية التي ألفها حتى كاد لا يشعر بها: نعمة الأمن، والماء، والطعام، والمسكن، والنوم، والحركة، والعقل، والأهل، والستر، وقبل ذلك كله نعمة الإسلام والهداية والقرآن.

3- ومنها أن يتذكر أن منع الله قد يكون عطاء، وأن تأخير ما نحب قد يكون حماية ورحمة. قال سبحانه: **﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].**

4- ومنها أن يعلم العبد أن الشكر سبب لزيادة النعم وبقائها، وأن الكفران سبب لزوالها، قال تعالى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ **[إبراهيم: 7].**

الخلاصة:

1. **الكنود هو شديد الجحود لنعم الله؛** يتذكر المصائب ويغفل عن النعم الكثيرة التي أحاطه الله بها.
2. **الكنود صفة متأصلة في طبع الإنسان،** ولا ينجو منها إلا من زكّى نفسه بالإيمان والشكر والرضا.
3. **من علامات الكنود تضخيم البلاء ونسيان العافية؛** فقد يمحو ابتلاء واحد من ذاكرة الإنسان سنوات طويلة من النعم.
4. **نعم الله لا يمكن حصرها؛** فكل نعمة ظاهرة تحيط بها نعم كثيرة خفية، كما في نعمة البصر والطعام والتنفس والنوم.
5. **استعمال النعمة في معصية الله من أعظم صور جحودها؛** كشكر البصر بغضّه عن الحرام، واللسان بحفظه من الكذب والغيبة.
6. **التذمر المستمر يحرم الإنسان لذة النعم،** ويجعله أسيرًا للشعور بالنقص والظلم وسوء الحظ.
7. **من مداخل الشيطان صرف الإنسان عن الشكر؛** بإشغاله بما فاته، ومقارنته الدائمة بمن هو أكثر منه حظًّا في الدنيا.
8. **الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء كامل؛** فلا ينبغي أن ينتظر الإنسان فيها راحة دائمة أو تحقق كل رغباته.
9. **الإنسان ممتحن في السراء والضراء؛** فالغنى والفقر، والصحة والمرض، والعلم والمال، كلها اختبارات من الله.
10. **سيرة النبي ﷺ تعلمنا الثبات والشكر؛** فقد مرّ بابتلاءات عظيمة، ومع ذلك ظل حامدًا لربه صابرًا على قضائه.

11. **المؤمن رابح في جميع أحواله؛** فإن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر واحتسب.

12. **التعرف إلى الله يكون بالشكر في الرخاء والصبر عند البلاء،** لا باللجوء إليه وقت الشدة ثم نسيانه بعد زوالها.

13. **الشكر الحقيقي يقوم على ثلاثة أركان** :اعتراف القلب بأن النعمة من الله، والثناء عليه باللسان، واستعمال النعمة في طاعته.

14. **من وسائل علاج الكنود النظر إلى من هو دوننا في أمور الدنيا؛** حتى ندرك مقدار ما منحنا الله ولا نزدري نعمه.

15. **تذكّر النعم اليومية المعتادة يوقظ القلب للشكر،** ومن أعظمها نعمة الإسلام والهداية والقرآن والأمن والعافية.

16. **قد يكون المنع عين العطاء؛** فما يكرهه الإنسان أو يتأخر عنه قد يكون حمايةً ورحمةً وخيرًا لا يعلمه.

17. **الشكر سبب لزيادة النعم وبقائها،** بينما يعرضها الجحود للزوال والعقوبة.

18. **الواجب تربية النفس على تعداد النعم بدل تعداد المصائب،** وعلى الحمد بدل الشكوى، والرضا بدل السخط، وحسن الظن بالله بدل التشاؤم.

****

الإنسان في القرآن

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ

لفي خسر﴾

[العصر:2]

20- ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لفي خسر﴾
[العصر: 2]

يقول تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3]

معنى الآيات الكريمة

قوله تعالى: (والعصر) هذا قسم من الله؛ ما معناه؟

أقسم الله تعالى بالعصر، وهو الزمن الذي تجري فيه حياة الإنسان، وتقع فيه أعماله، وتُطوى فيه أيامه، وتقترب فيه نهايته.

ولله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه؛ أما العبد فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله، فقد **قال النبي ﷺ: «مَن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت» متفق عليه.**

وأقسم الله بالزمان لعظيم شأنه؛ فالزمان ميدان العمل، ومستودع الأعمار، ورأس مال الإنسان الحقيقي.

فإذا ضاع المال أمكن أن يُعوَّض، وإذا ضاعت الصحة فقد تعود، أما الدقيقة التي مضت من العمر فلن ترجع إلى يوم القيامة.

كل يوم يمر يأخذ جزءًا من أعمارنا، ويقربنا من قبورنا، ويدنينا من لقاء ربنا.

وقد قال الحسن البصري رحمه الله: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك.

" إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ" جاء تقرير خسران الإنسان مؤكدًا بالقسم في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾، وبـ «إنَّ»، وباللام في قوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، كما أن التعبير بالجملة الاسمية يدل على ثبوت هذا الخسران واستقراره؛ وذلك لتقرير حقيقة عظيمة لا شك فيها: أن جنس الإنسان واقع في الخسران.

ولم يقل سبحانه: «إن الإنسان لخاسر»، بل قال: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، فكأن الخسران يحيط به من كل جانب؛ لأن رأس ماله، وهو عمره، ينقص في كل لحظة، فإن لم يعمّره بطاعة الله صار نقصان عمره زيادةً في خسارته.

والناس جميعًا يسيرون إلى الله، لكن بعضهم يسير إليه بطاعته، وبعضهم يسير إليه بمعصيته، وكل يوم يمر يقرب الجميع من النهاية.

قد يظن بعض الناس أن الخاسر هو من فقد ماله، أو خسر تجارته، أو ضاعت منه وظيفته، أو أصابه المرض؛ لكن الخسارة الكبرى هي أن يخسر الإنسان نفسه وأهله يوم القيامة، **قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15].**

أما خسائر الدنيا فقد يعوضها الله، وقد تكون رفعةً للدرجات وتكفيرًا للسيئات، ولكن من خسر رضوان الله والجنة فقد خسر كل شيء.

إذن الإنسان في خسر حينما ينسى لماذا خلق؟ وما هي نهايته؟ وإلى أين المصير؟

وعمر الإنسان أيام محدودة، وأنفاس معدودة، وساعات محفوظة، وسيسأل عنها بين يدي الله، **قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» رواه الترمذي.**

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر» رواه مسلم.

إننا نحرص على أموالنا من الضياع، ونراقب حساباتنا، ونسأل عن أرباحنا وخسائرنا، ولكن كم منا يحاسب نفسه على رأس ماله الأعظم: عمره؟

كم مضى من أعمارنا في غفلة؟ وكم ضاع من ساعاتنا فيما لا ينفع؟ وكم انقضت من لياليا دون صلاة أو تلاوة أو ذكر أو عمل صالح؟

يكون الإنسان في خسر حينما يكون في غفلة وضياع لا يعرف قيمة لوقته ولا لحياته، **ولذلك قال النبي ﷺ: " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ "**

ما معنى مغبون؟

في اللغة العربية لو قلنا: إن شخصا يملك سيارة بعشرة آلاف فباعها بثمانية فهذه تُسمى خسارة؛ فقد خسر ألفي دولار في هذه السيارة، ولكن إذا كانت قيمة السيارة عشرة آلاف، فباعها بألفين فهذا يسمى "مغبون " لا يعرف قيمة ما يملك؛ هذا الإنسان إذا داوم على حاله يحجر عليه ليمنع من تصرفاته المالية لأنه لا يدرك حقيقة الأشياء، لا يفرق بين الواحد والعشرة.

فمعنى الحديث: إن كثيرًا من الناس لا يدركون قيمة هاتين النعمتين، فيضيعون فرصة الانتفاع بهما؛ وهذا غبن عظيم، لا مجرد خسارة عابرة.

الصحة نعمة كبيرة من الله لا تقدر بثمن، والغبن في الفراغ هو إمضاء الوقت بلا فائدة.

حين تكون إنسانًا مرتبًا ومنظمًا، وتجعل لحياتك ولساعات يومك برنامجًا واضحًا، تجد بركة في وقتك وعُمرك، وتحقق قدرًا أكبر من الإنجاز؛ أما حينما تكون الأمور هكذا ارتجالية من دون ترتيب مع غفلة وتضييع نعيش بلا هدف واضح ولا خطة منظمة؛ فهذا يمر به العمر سريعا سريعا دون أن يكون له هدف أو أمل يرجوه أو يحققه، والأيام تمر سريعا جدا، فلو أن الإنسان عاش حياته هكذا منغمسا في الدنيا فقد أضاع أغلى ما يملك: الوقت الذي هو العمر.

وعندما تمر سنة من عمر الإنسان ينبغي ألا يقتصر نظره على زيادة سنه، بل يتذكر أن عامًا من أجله قد مضى، فيحاسب نفسه: ماذا قدّم فيه لآخرته؟

أنت الآن تزداد في عمرك وينقص من أجلك، فلو انتبهت لسألت نفسك: وأنا في طريقي إلى الله، وأقترب يومًا بعد يوم من الدار الآخرة، ماذا قدمت في دنياي لأخراي؟

الناجون من الخسران

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

[العصر: 3]

هؤلاء هم أهل النجاة، وننتبه إلى أن الاستثناء بـ " إلا " دائما يأتي في اللغة لإفادة قلة المستثنى؛ الشيء المستثنى دائما قليل يعني حينما يكون عندنا فصل دراسي به مئة طالب فنقول: لم ينجح إلا عشرة هذا إشارة إلى التقليل عشرة من مئة عدد قليل

فهكذا **قوله تعالى:" إن الإنسان لفي خسر "** معناه أن كل إنسان في خسران وضياع إلا الذين جمعوا الصفات الأربع التي ذكرها الله تعالى**"إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ "**

وقد بيَّن الله أن النجاة من هذا الخسران العام لا تكون بالأماني، ولا بالانتساب المجرد، ولا بالمال والمنصب، وإنما تتحقق بأربعة أصول عظيمة، وهي:

الأصل الأول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

أول طريق النجاة هو الإيمان، والإيمان ليس كلمةً تُقال باللسان فقط، بل هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وأن يمتلئ قلبك بمحبة الله وتعظيمه، والخوف منه، والرجاء فيه، والتوكل عليه.

والإيمان الصادق يغير حياة صاحبه؛ فإذا سمع نداء الصلاة أجاب، وإذا عُرضت عليه المعصية خاف الله، وإذا نزل به البلاء صبر، وإذا أُعطي شكر، وإذا أذنب استغفر وتاب.

وليس الإيمان دعوى مجردة، بل له آثار تظهر في الأخلاق والمعاملات والعبادات.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]

والإيمان هو الذي يصحح النظرة لهذه الدنيا ؛ فكل من كانت نظرته إلى الدنيا بعيدة عن الإيمان كانت نظرته مختلة ، لأنه يرى دنيا ولا يرى آخرة يرى دنيا ومتع وملذات وينسى عبادة الله الذي وهبه هذه النعم، فالإيمان بالله سبحانه وتعالى أساس النجاة، والإيمان هو البوصلة التي تحدد للإنسان اتجاهه، وتصحح تصوره واعتقاده، والإيمان ليس كلاما يقال، بل حقيقة في القلب يظهر أثرها في العمل، وهذا هو الأصل الثاني:

الأصل الثاني: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

قرن الله الإيمان بالعمل الصالح؛ لأن الإيمان الصادق يثمر طاعةً وعملًا.

والعمل الصالح لا يكون صالحًا مقبولًا عند الله إلا بشرطين:

الأول: أن يكون خالصًا لله، لا رياء فيه ولا طلبًا لثناء الناس.

والثاني: أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ، فلا يُعبد الله بالبدع والأهواء.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]

والصالحات كلمة شاملة: تدخل فيها الصلاة، والزكاة، والصيام، وتلاوة القرآن، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف، وكفالة اليتيم، والصدق في الحديث، والأمانة في العمل، والكسب الحلال، والإحسان إلى الناس، وإماطة الأذى عن الطريق.

فلا تحتقرن عملًا صالحًا مهما بدا صغيرًا؛ **فقد قال النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» رواه مسلم.**

الأصل الثالث: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾

لم يقل الله: «وعرفوا الحق» فحسب، بل قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾؛ لأن الإنسان قد يعرف الحق ثم يضعف عن القيام به، فيحتاج إلى من يذكره ويعينه ويثبته.

والتواصي يدل على المشاركة: أوصيك بالحق وتوصيني به، أذكّرك إذا نسيت، وتذكرني إذا غفلت، وأنصحك إذا أخطأت، وتنصحني إذا زللت.

والحق يشمل توحيد الله، واتباع رسوله ﷺ، والتمسك بالقرآن، والقيام بالفرائض، واجتناب المحرمات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعدل في الحكم، والصدق في القول، وأداء الحقوق إلى أهلها.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2]

وقال النبي ﷺ: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم.

لكن النصيحة لها أدب؛ فلا تكون بالتشهير، ولا بالتعيير، ولا بالتكبر، ولا بالفضيحة، وإنما تكون بعلم ورحمة وحكمة وإخلاص.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]

ومن التواصي بالحق أن يتواصى الزوجان على طاعة الله، وأن يربي الوالدان أولادهما على الصلاة والقرآن والأخلاق، وأن ينصح الصديق صديقه، وأن يتعاون أهل المسجد على الخير، وأن يذكّر الموظف زميله بالأمانة، وأن يردّ المسلم أخاه عن الظلم والمعصية.

إن المجتمع الذي تغيب فيه النصيحة ينتشر فيه الفساد، ويصبح المنكر مألوفًا، ويستوحش الناس من المعروف، أما المجتمع الذي يتواصى أفراده بالحق فهو مجتمع حي، يتدارك أفراده بعضهم بعضًا قبل الوقوع في الفساد.

الأصل الرابع: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

خُصَّ الصبر بالذكر بعد الحق؛ لأن القيام بالحق يحتاج إلى صبر؛ فطريق الطاعة يحتاج إلى مجاهدة، وترك المعصية يحتاج إلى ثبات، والدعوة إلى الخير قد يصاحبها أذى وابتلاء.

والصبر ثلاثة أنواع:

- صبر على طاعة الله حتى يؤديها العبد ويحافظ عليها.
- وصبر عن معصية الله حتى يتركها مع قدرته عليها.
- وصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخط ولا يعترض، بل يحتسب ويرضى عن ربه.

إن المحافظة على صلاة الفجر تحتاج إلى صبر، وغض البصر يحتاج إلى صبر، وطلب الرزق الحلال، واجتناب المال الحرام، يحتاجان إلى صبر، وحفظ اللسان عند الغضب يحتاج إلى صبر، وبر الوالدين عند الكبر يحتاج إلى صبر، وتربية الأولاد في زمن الفتن تحتاج إلى صبر، والثبات على الدين بين الشبهات والشهوات يحتاج إلى صبر.

قال رسول الله ﷺ: «ومن يتصبر يصبِّره الله، وما أُعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر» متفق عليه .

خلاصة فهمنا للسورة:

أقسم الله تعالى بالزمن لقيمته وأهميته لينبهنا على أن العمر ينقضي ويمضي، وأن هناك من يعيش في غفلة وضياع **(إن الإنسان لفي خسر)** فهو منغمس في الخسارة بفوات عمره، ثم استثنى الله جل وعلا أهل الإيمان **"إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ "** ومع إيمانهم وعملهم الصالح فإنهم يتواصون فيما بينهم يوصي بعضهم بعضًا بالحق، ويحض بعضهم بعضًا على الصبر عليه والثبات في الدعوة إليه.

فجمعت هذه السورة منهج النجاة في أربع مراتب مترابطة:

- أن تصلح نفسك بالإيمان.
- وأن تصدق إيمانك بالعمل الصالح.
- وأن تسعى في إصلاح غيرك بالتواصي بالحق.
- وأن تثبت وتُثبّت غيرك بالتواصي بالصبر.

فالإيمان بلا عمل دعوى ناقصة، والعمل بلا إخلاص واتباع مردود، ومن أصلح نفسه وأهمل أهله ومجتمعه فاته جانب من الواجب، ومن دعا إلى الحق ولم يصبر انقطع في منتصف الطريق.

وهنا يظهر التوازن العظيم في الإسلام: صلاح الفرد، وصلاح العمل، وصلاح المجتمع، والثبات على طريق الإصلاح.

الخلاصة:

1. بيان عِظَم شأن الزمن؛ فقد أقسم الله به لأنه ميدان الأعمال ومستودع الأعمار.
2. أن عمر الإنسان هو رأس ماله الحقيقي، وكل لحظة تمضي منه لا يمكن استرجاعها.

3. أن الإنسان بطبيعته واقع في الخسران؛ لأن عمره ينقص باستمرار، فإن لم يعمّره بالطاعة ازدادت خسارته.

4. الخسارة الحقيقية ليست خسارة المال أو الوظيفة أو الصحة، وإنما خسارة النفس والأهل يوم القيامة والحرمان من رضا الله والجنة.

5. ضرورة محاسبة النفس على العمر: فيم مضى؟ وبماذا امتلأت أيامه وساعاته؟

6. أن النجاة من الخسران لا تتحقق بالأماني أو الانتساب المجرد إلى الإسلام، وإنما بأربعة أصول: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

7. الإيمان الصادق يظهر أثره في العبادة والأخلاق والمعاملات، وفي الصبر عند البلاء، والشكر عند النعمة، والتوبة عند الذنب.

8. أن العمل الصالح ثمرة الإيمان ودليل صدقه؛ ولذلك قرن الله بينهما.

9. لا يكون العمل مقبولًا عند الله إلا بشرطين: الإخلاص لله تعالى، وموافقة سنة النبي ﷺ.

10. شمول مفهوم العمل الصالح لكل أبواب الخير، من العبادات والأخلاق والمعاملات والإحسان إلى الناس.

11. أن معرفة الحق وحدها لا تكفي، بل لا بد من العمل به والدعوة إليه والتعاون على الثبات عليه.

12. أهمية النصيحة المتبادلة؛ فالإنسان قد يضعف أو ينسى، فيحتاج إلى من يذكّره ويعينه.

13. أن النصيحة الشرعية تقوم على العلم والحكمة والرحمة والإخلاص، لا على التشهير والتعيير والفضيحة.

14. أن المجتمع الذي تغيب فيه النصيحة ينتشر فيه الفساد ويصبح المنكر مألوفًا، بينما يحفظ التواصي بالحق سلامة المجتمع.

15. اقتران الصبر بالحق يدل على أن معرفة الحق والعمل به والدعوة إليه تحتاج إلى ثبات ومجاهدة.

16. أن الصبر من أعظم أسباب الثبات على الدين، ولا سيما في زمن الشبهات والشهوات والفتن.

17. جمعت السورة بين إصلاح الفرد بالإيمان والعمل الصالح، وإصلاح المجتمع بالتواصي بالحق والصبر.

18. منهج النجاة المتكامل هو: أن يصلح الإنسان نفسه بالإيمان، ويصدق إيمانه بالعمل، ويسعى في إصلاح غيره بالحق، ثم يثبت ويُثبّت غيره بالصبر.

****

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
وبعد هذه الرحلة مع **الإنسان في القرآن**، يتبين لنا أن القرآن قد رسم للإنسان صورةً متكاملة لا تكاد تترك جانبًا من جوانب وجوده إلا وضعته في موضعه الصحيح.
عرَّفه **بأصله** حتى لا يتكبر، وعرَّفه **بتكريمه** حتى لا يحتقر نفسه، وعرَّفه **بضعفه** حتى لا يستغني عن ربه، وكشف له **عجلته وهلعه وجزعه ومنعه وظلمه وجهله وكنوده** حتى يعرف مواضع الخلل في نفسه، ثم لم يتركه هكذا، بل دلَّه على سبيل تزكيتها بالإيمان والصلاة والصبر والشكر والتوكل والعمل الصالح.

وعرَّفه القرآن أن الدنيا ليست دار جزاء، وإنما دار ابتلاء وعبور، يتقلب فيها الإنسان بين السراء والضراء، والنعمة والمحنة، والقوة والضعف، وأن المؤمن يتعامل مع ذلك كله بمنهج واحد :**الشكر عند النعمة والصبر عند البلاء** .

وعرفنا أن تكريم الإنسان لا يعني إطلاقه من كل قيد، بل إن أعظم مظاهر تكريمه أن حمَّله الله الأمانة، ومنحه من العقل والإرادة والاستعداد ما يؤهله للقيام بوظيفته في الأرض، في إطار العبودية لله سبحانه وتعالى .

ومن هنا تتضح الحقيقة الكبرى: أن الإنسان لا يستطيع أن يفهم نفسه بعيدًا عن ربه، ولا يستطيع أن يصلح نفسه بعيدًا عن وحيه، ولا يستطيع أن يعرف قيمة حياته إذا نسي آخرته.

فإذا عرف الإنسان أنه مخلوق عرف أن له خالقًا، وإذا عرف أنه عبد عرف أن له ربًّا، وإذا عرف أنه مبتلى عرف أن لحياته غاية، وإذا عرف أنه مسؤول عرف أن لأعماله حسابًا، وإذا عرف أنه ميت عرف أن الدنيا ليست دار خلود.

وهكذا تبدأ قصة الإنسان في القرآن **بالخلق**، وتمضي عبر **التكليف والابتلاء والاختيار**، وتنتهي **بلقاء الله والجزاء**؛ وبين البداية والنهاية عمر قصير هو رأس مال الإنسان، إما أن يعمره بالإيمان والعمل الصالح فيربح، وإما أن تبتلعه الغفلة والشهوة والتسويف فيخسر.
وما أجمل أن تكون آخر رسالة يحملها القارئ من هذا الكتاب هي الرسالة التي ختم بها الكتاب نفسه: أن العمر ينقضي، وأن النجاة ليست أمنية، وإنما إيمان وعمل وتواصٍ بالحق وصبر عليه .

فاللهم أصلح قلوبنا، وزكِّ نفوسنا،

وألهمنا رشدنا، وقنا شر أنفسنا،

وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك،

ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين،

واجعل أعمارنا زيادة لنا في كل خير،

واجعل خير أعمالنا خواتيمها،

وخير أيامنا يوم نلقاك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين.

****

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	2
1- ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]	8
2- (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) 3- النساء 28	20
3- ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [سورة يونس:12]	28
4- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: 5]	38
5- ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [سورة إبراهيم: 34]	48
5- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]	61
7- ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورا﴾ [سورة الإسراء:100]	71
8- ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [سورة الكهف: 54]	82
9- (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) [الأنبياء:37]	91
10- (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) [الحج: 11]	107
11- ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب:72]	116
12- ﴿إن الإنسان خُلقَ هَلوعاً﴾ [سورة المعارج:19]	123
13- ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار:6]	133

14- ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]	142
15- ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ [سورة الفجر:15]	152
16- ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ [سورة البلد:4]	160
17- ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [سورة التين:4]	169
18- ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [سورة العلق:6]	177
19- ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: 6]	187
20- ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لفي خسر﴾ [العصر: 2]	197
خاتمة الكتاب	207

تم الكتاب

والحمد لله رب العالمين